الضّرير

مجموعة قصصيّة

٢٠١٦م

توفيق أحمد جاد

الضّرير

مجموعة قصصيّة

٢٠١٦م

المملكة الأردنية الهاشمية
رقم الإيداع لدى دائرة المكتبة الوطنية
(٢٠١٦/٢/٨٦٥)

٨١٣,٩

جاد، توفيق احمد
الضرير / توفيق احمد جاد .- الرمثا:المؤلف، ٢٠١٦

( ) ص .
ر. إ. : ٢٠١٦/٢/٨٦٥.
الواصفات : /القصص العربية//العصر الحديث/

يتحمل المؤلف كامل المسؤولية القانونية عن محتوى مصنفه ولا يعبّر هذا المصنف عن رأي دائرة المكتبة الوطنية أو أي جهة حكومية أخرى.

لوحة الغلاف للفنان التشكيلي : شادي غوانمة

تصميم الغلاف: معاوية عبدالله بشابشة

إهداء..

إلى العابرين من بوابة الحرف والرؤيا..

إلى القابضين على جمر الحكاية..

إلى الحالمين بنبض الحياة..

إلى كل جهد على جدار الورق..

إلى كل من يبحث عن الحقيقة..

بين ثنايا الظلام بحبر الكتابة..

إلى روح أمي وأبي..

إلى غاليتي.. زوجتي..

إلى من كانت قلمي ودفتري.. ابنتي إسراء..

إلى أولادي وبناتي.. إلى أهلي وأصدقائي..

وأنا..

أهدي نتاجي هذا..

توفيق أحمد جاد
الرمثا \ إربد

تقديم

الأستاذ- يوسف أحمد أبو ريدة
الظاهرية- الخليل – فلسطين

لم يكن الأدب في مجموعة توفيق جاد القصصية التي وسمها بـ "الصرير" إلا الحياة نفسها، بتنوعها، وتداخلها، وما فيها من موجات إنسانية تتداخل أحياناً وتتابع تترى أحيانا أخرى، وترجع بالذهن إلى الماضي البعيد، تستشرف من خلاله المستقبل الحالم.

تحضر في إحدى عشرة قصة من القصص التي تشكل المجموعة كثير من مشاهد الحياة وتفاصيلها، وترصد حالات أوجاع الإنسان وآماله، بطرح واقعي يجمع بين زاويتي الأصالة والمعاصرة، وتحمل عناوينها كثيرا من الدلالات و الانزياحات المثقلة بالإيحاءات الدلالية وظلالها في مثل: " الصرير" و" حنان" و"الحلم" و" رزان"، وتتناول الحياة بوجهها المفرح السعيد، والقاتم المثقل بالألم، كما تتناول الحياة بارتباطاتها بالماضي كما في " الوصية" و" ذو الأذن المقطوعة".

يُحسن توفيق التأمل والإنصات لصوت العصر، كما يحسن رصد المواقف وحالات التوتر الإنسانية التي تأخذ بتلابيب المتلقي وتشده إليها شدا عنيفا، فيعيش مع أبطاله المتنوعين في مستوياتهم الثقافية والوظيفية لحظات الانفعال العاطفي بتوتر يقارب مشاعر الناس في المشهد، فلا تكاد تسمع نبض كيس البلاستيك على شاطئ البحر حتى تكون المشكلة نفسها هي الحل، فاللقيط "رزق" مشكلة اجتماعية وإنسانية، غير أنه يكون حلا لمشكلة الزوجة العاقر "ريما".. ففي ضربة واحدة تنهض مشكلتان اجتماعيتان بثوب إنساني في مشهد رومانسي حالم،

وتكون أولاهما مفتاح أمل في الثانية ،هذا المفتاح الذي تفقده الزوجة وإلفها في حياتهما.

ويلبس المشهد العادي ثوبا تراثيا أحيانا في مشاهد الحب، كأنما نستحضر بطولات أصحاب الغزل العذري التي تحفل بها دواوين الشعر العربي وذخائره، ففي "سائق الشاحنة"، نرى السائق دائم المرور ببيت من يحب، كأنه يقبّل ذا الجدار وذا الجدارا، فلا ينشغل عنها إلا بها، ولا يكاد يعرفها إلا بطريقة ساذجة يسأل عنها أخاها، فيعرف أنها في المشفى، تتلقى علاجا من مرض مزمن ، هو حبها له وتعلقها به، ويتكشف هذا الحب العميق، من خلال تقنية الحوار الذي ينتهي بشفائها السريع، ونشاطها من عقال، وبخاصة أن حبيبها صارحها بأنه سيطلب يدها حين تتعافى من مرضها، وتخرج البلد من عاصفة ثلجية، تحذر الأرصاد منها.

وإذا كان الزمان في قصة "سائق الشاحنة" يسير باستقامة، فإنه يتداخل بغير انتظام في قصة "رفيف"، بتقنية الاسترجاع المقطعي "الفلاشباك" حين تتذكر منشوراتها وذكرياتها ف شبكة التواصل الاجتماعي الفيسبوك، الذي يحضر بما فيه من تحديث غير أنماط الحياة وأشكال تواصل العاشقين فضلا عن سماته الاجتماعية والعصرية ، غير أنها تعود إلى الاستقامة والتقدم الأفقي الأمامي، حين تتزوج من إبراهيم، ثم حين تعود إلى عشق هاني الذي يموت في حادث سير، غير أن القاص لا ينسى في معالجته للزمن أن يرسل حكمة الدهر في شكل وصية دائمة ونظرة ثاقبة للحياة على لسان الجد وهو الشيخ الذي تمكن منه الزمان والهرم في قصة (الوصية).

تتوزع الأزمنة والفصول، وتبدو فيها مظاهر الاعتدال الجوي كما تبرز مظاهر الشتاء والصيف بالبرودة الطاغية والحرارة اللاهبة، وتلقي بتأثيرها على الأماكن وشخوصها وأحداث القصة نفسها كما في حضور الثلج العاصف المرجئ للأعمال ومراسم الخطبة والحياة كما في قصة (سائق الشاحنة) والحر اللافح الذي

يكاد يذيب الجسم في قصة (ذو الأذن المقطوعة)، وليس من غريب على قاص كتوفيق جاد أن يلتفت إلى ما في التكنولوجيا الحديثة-بخاصة الحاسوب والإنترنت-من أثر واضح على الزمن، فهي تقنيات بحاجة إلى وقت ما لتعلمها، وأوقات طويلة يقعدها الإنسان منشغلا بها، فهي وإن كانت توفر الجهد والوقت من ناحية، فهي تضيع كثيرا من ساعات اليوم، وليس أدل على ذلك من قصتي "رفيف" و"حنان"، وتحضر بما فيها من ملامح التخفي والأسماء المستعارة والعشق للاسم والكلام، وكأن اليد الكاتبة على الكيبورد تعشق قبل العين والأذن.

ولعل المتأمل يجد الولوع الدائم بالمشاهد الرومانسية حتى في حالات الحزن والألم والمرض، فلا يكاد يعثر المتفحص على قصة تكاد تخلو من رسم مشهد رومانسي بامتياز، إن واقعا مشهديا في السرد، أو استرجاعا ذهنيا في خيال الشخصية، فتحضر في مشاهد المخاض والموت ذكريات شهر العسل، وتحضر باقات الورود، ويرسل قمر الحبيب أشعته في مفاصل المكان كله، وأترككم مع هذه الفقرة اللافتة من قصة "حنان": (شعرت أنها فراشة تحوم حول زهرة تتفتح لأول مرة ورحيقها لم تلامسه خيوط الشمس، أي سعادة غامرة تعيشها.. وأي فرح يحملها ويعلو بها فوق السحب!...).

للمكان تجلياته المختلفة، المفتوح على أصداء الحياة كشاطئ البحر، والحقول والريف، والمدينة، والمغلق الذي يتمثل بالمطبخ، والمستشفى، والبيت، والمسجد والمقهى والماخور، وتنشأ عن هذا التنوع في الأمكنة مسارات مختلفة للأحداث، التي تشف عن تفهم عميق لما يجري في جنبات الحياة، وما للأمكنة من حضور في الأحداث، وتأثير فيها وتأثر بها، فالمقهى حاضرة بما فيها من ناس وقمار وطقوس وعمال، وما في الماخور من نساء وابتذال وحرام، وما في المسجد من تقوى وحكمة كما تمثله قصة (الوصية).

وتتنوع الشخصيات التي يختارها من واقع الحياة ومن الطبقتين المتوسطة والفقيرة، ففيها المرأة العاشقة التي تمرض بحبها، والسيدة اللطيفة، والتي تحب وتستعمل موقع التواصل الاجتماعي الفيسبوك وتعرف تقنياته ومصطلحاته، وتسقط في الحب من خلاله، والمرأة العاقر التي تتبنى اللقيط، والمرأة الغانية في الماخور، وفيها سائق الشاحنة، والوالد، والجد الحكيم، وشيخ لاعبي القمار، والجرسون، والفلاح.

ويحسن توفيق جاد الغوص في تفاصيل الحياة واختيار الشخصيات الممثلة لواقع الحياة، فتسير إلى المستقبل آملة واثقة بغد أجمل، بل ويكون الولد اللقيط "رزق" لامرأة فتفرح به فرح أم بطفل رحمها.

بقي أن أقول إن القاص يمتلك خيوط فنه الأدبي، ويحسن شد القارئ، بأدوات تشويق متنوعة، وينقله من بيئة إلى أخرى بلغة سلسة، تناسب الجو العام للقصص، ويحسن تحليل أثر مقتنيات العصر الحديث وتقنياته، وما ينشأ عنه من قضايا اجتماعية تصبغ الحب والحياة.

على أمل أن نتلقى قريبا روايته الأدبية القادمة ، لتضاف بصحبة مجموعته القصصية إلى النماذج الراقية من الأدب الأردني الحديث.

وفي الختام أسأل الله أن يوفق أديبنا الغالي "توفيق" وأن يحفظ الأردن الحبيب ملكاً وشعباً وأرضاً.

التوتر السطحي والمشاعر الكامنة في مجموعة (صرير) القصصية للقاص توفيق جاد

بقلم: الشاعر والناقد (عبدالرحيم جداية)

التوتر السطحي هو الحالة التي تسبق القصّ، والناتج عن تأثيرات ومدركات حسّية، شكّلت الشعور القصصي عند القاصّ توفيق جاد في مجموعته (صرير) القصصية، حيث الحدس يرتفع في طاقة فوق حسّية، ليقدم لنا وصفا وسردا لحالات إنسانية عاشها، عاشها في واقعه وتجربته الحياتية الكبيرة والواعية لمجريات الأحداث، ليكون قادرا على اجتزاء أو اختيار الحالة التعبيريّة المناسبة لقصّته من مجموع تلك الخبرات الحياتيّة، التي يجمع بينها لينتج لنا صريرا في القلوب وصريرا في الأذهان، مشكلا بيئة الصرير دون أن يذكر تلك الملامح لكنّها تتشكل في أذهاننا.

بدأت القصة في عالم (جي دي موبيسان القاصّ الإيطالي)، الذي شكل ملامح القصّة القصيرة، ومن أشهرها قصّته (في ضوء القمر) حيث السّرد المتوالي والحكاية المرويّة لهما دور بارز في القصّة الموبيسانية، التي شكّلت كلاسيكيات القصّة العالميّة، لكّن التوتر السّطحي الجديد في الألفيّة الثالثة، والبحث عن الحرية والانطلاق من القيود، جعلت القاصّ يبحث عن قصّة بشكل جديد، فكانت القصّة القصيرة والقصّة القصيرة جدّا والقصّة الومضة، حيث اختزلت في عدد الكلمات، واختزلت كثيرا من السّرد والوصف، واختزلت الحكاية إلا بملمح متوتّر يوقظ فينا روح الحكاية.

لكنّ توفيق جاد القاصّ بخبرته القصصيّة الطويلة، وخبرته الرّوائيّة وخبرته الحياتيّة وتجاربه الإبداعية المتعدّدة ونشاطاته الأدبيّة، أيقظت فينا القصّة الموبيسانية لتعود الحكاية ناضجة في قصصه، والتوتر السطحي الناتج عن مشاعر وأحاسيس تجاه حالة اجتماعية، أعادت لنا أطراف الحكاية بتسلسلها الجميل من خلال الوصف والسرد، مكونا ملامح القصة من خلال الشعور الغريب الذي لم تعهده قبل في قصته (اللقيط) فتكتمل الرومانسية في الأجواء الشاعرية بقبلة على وجنتيها، حيث تتداخل الأحاسيس والمشاعر مع شيء من الحيرة في اختيار ملابسها، لتكتمل أمومة ريما وزوجها سليم بطفل وجداه على الشاطئ، مقدما لنا صورتين متقابلتين في قصة (اللقيط) حيث الطفولة والأمومة يكملان جانبي الشخصية الإنسانية.

هذه المغازي العميقة وغيرها توترت فأنتجت قصصا إنسانية وحالات عشناها مثل قصة (رزان)، لكننا لم ننتبه إلى تلك الدواخل العميقة عند رفيف، حيث تعلق بصرها بالمكان الذي يجمع العروسين، وهي حالة ثنائية أخرى ترق لها الفتاة، لتتخيل نفسها في ثوب الزفاف، وهذا المشهد الإنساني الداخلي، يقدمه لنا توفيق جاد في قصة (رفيف) التي نظرت للعروسين للمرة الأخيرة وأسرعت الخطى حتى وصلت الباب.

كما يقدم لنا توفيق جاد الانتظار والألم أمام الحاسوب، بانتظار أسم مستعار لتجد في شخصية ابراهيم الحب الذي يشبه دواخلها لتعيش حياة الزوجة مع أطفالها، لكن التوتر يعود من جديد مع هاني الصديق الحبيب على صفحات الفيسبوك، والتي تسعى لمقابلته لكن النهاية المفجعة لهاني هي من أعادت رفيف لبيتها وأولادها.

توفيق جاد قناص ماهر، إذ يقدم لنا سرداً بسيطاً يكاد يكون مألوفاً في حياتنا اليومية أو سمعنا عنه أو عشناه ربما، لكنه وبفنية القاص يعيد إلينا فرصة في حياتنا حتى نتمكن من إعادة ترتيب أحاسيسنا ومشاعرنا وحالتنا الاجتماعية، التي تفيض أحياناً

بتوترها الداخلي وكلماته، التي تعيد الميزان الحقيقي لتلك المشاعر والأحاسيس فلا يطغى للتوتر الخارجي ولا ينسحب من حياتنا، لتبقى القصة قائمة في ضمائر المتلقين المشاركين في أحداث القصة، والتي يعيشون أدوار البطولة أحيانا فيها، وربما أدوار ثانوية أو هامشية، لكن القارئ لمجموعة (صرير) القصصية غالبا ما يجد نفسه جزءا من الحكاية والسرد، وكثيرا ما يترك لنا توفيق جاد مساحة نعبئها بكلماتنا، و نملؤها بمشاعرنا وأحاسيسنا، لنعيش موقفا ذاتيا تجاه نصه القصصي، نفكر ونعيد التفكير، نتأمل ونهيم في عوالمنا بين قصة شكلها بقلمه، وتشكلت حياتنا مع مفرداته التي ارتكزت على الحواس البشرية وتفاعلاتها الشعورية الإنسانية بما ينقص الإنسان في مادة الوجود، أو يكمل وجوده في بيئة القصة.

هذا هو توفيق جاد، صاحب التجربة والرؤية العميقة والنضج الثقافي والاجتماعي في مجموعته الأولى(صرير) فهل يبقى الصرير محركا لدوافعنا الغريزية أم نغفل عن ذلك الصرير ونكتب قصتنا بأيدينا.

لكم الاختيار ولكم الحرية ولكم ذوقكم، ولتوفيق جاد عالمه في القص والسرد الذي يعيشنا ونعيشه، ليبقى الصرير حافزا لمزيد من الحكايات في حياتنا اليومية المليئة بالقصص والحكايات، فلكل أن يختار حكايته المناسبة، لكن الصرير هو ما اختاره القاص توفيق جاد في مجموعته الأولى.

مجموعة(صرير) للقاص توفيق جاد حيث الحكاية والسرد والوصف والتصوير للقصة، إحياء للأحاسيس والمشاعر الناطقة بمسؤولياتنا الاجتماعية.

قراءة على مجموعة " الصرير " للقاص توفيق أحمد جاد

بقلم – محمد فتحي المقداد

صدرت مجموعة **الصرير** القصصية، للقاص توفيق أحمد جاد في (٨٩) صفحة من القطع المتوسط، تصدّرَها الإهداء من المؤلف، وتلاه التقديم للأستاذ يوسف أحمد أبو ريدة من فلسطين، ومن ثم جاءت دراسة نقدية للشاعر و الأديب عبد الرحيم جداية بعنوان "التوتر السطحي و المشاعر الكامنة " في مجموعة صرير. توزعت المجموعة على مساحة إحدى عشر نصّا، ما بين المتوسط والطويل نسبيًّا.

البساطة السردية كانت ميّزة المجموعة، بتركيزها الشديد على إيصال الفكرة المتمثلة بمجموعة من القيم الاجتماعية السائدة، في محاولة الارتقاء المجتمعي من خلال تسليط الضوء على السلبيات المتضخمة في واقع ينسلخ شيئًا فشيئًا منها، لأسباب كثيرة، منها الانفتاح على العولمة، ودخول التقنيات لدقائق الحياة على نطاقات واسعة، وكان لها التأثير المباشر على اكتساب قيم جديدة ربما لا تتوافق، و تختلف كثيرًا أو قليلًا مع قيمنا العربية و الإسلامية المحافظة.

المجموعة متأججة بالمشاعر الإنسانية الفيّاضة دِفقًا فيما بين النفس الأمّارة، وبين إشراقات الروح الناصعة، لتأصيل مفهوم القيمة الحقيقية الموحية بالتماسك الاجتماعي الذي كان فيما مضى، متقابلًا مع واقع متناقض كُليًا مع موروثنا، مُستخْرَجًا من

ذاكرتنا الجمعية، والعودة إلى مكنوناتها، لاستخلاص العبر و العظات منها.

الوعظيّة واضحة غير متوارية خلف غِلالةٍ من أوشحة النسج الأدبي الجانحة عند كثير من الكتاب إلى الرمزية، أو الإغراق في الرمزية التائهة في مدارات تجعل العقدة تنفلت من يد القارئ.

والنص الأول في المجموعة كان تربويًا بامتياز، وتسليط الضوء على صبر الجد على حفيده الطائش الأرعن يتيم الأبوين، ومحاولات الجد الحثيثة لتقويم سلوكيات الحفيد المنحرفة، وتحذيراته المتكررة من رفقاء السوء و ذوي الأخلاق السيئة، وكان أسلوب الجد حكيماً، وحكمة الشيوخ صبورة وقورة اكتسبت الخبرة، و دفع بحفيده من خلال خوض التجربة بنفسه، لزيادة الاقتناع، و رسوخه في حياته كمبدأ، ليجعل منه عنصراً صالحاً مفيداً لمجتمعه.

و النص الثاني " الصرير" هو الذي اتخذت المجمعة عنوانها منه، حيث أصبح الصرير ظاهرة نفسية مقلقة لها الكثير من التعرجات، و المنحنيات الجديرة بتفسيرها، وبسط الكلام عنها باستفاضة.

و في النص الثالث " الحُلُم" جاء موضوع الرفق بالحيوان هو علامة النص المميزة، وأنّ اللُّقَمْ تردّ النقم، وهو ما أذهب عن بطل النص الهواجس النفسية التي منعته من النوم والراحة.

و هكذا باقي نصوص المجموعة، لا يخلو منها نص من فائدة مقتنصة، أو موعظة مكتسبة، أو تأكيد على قيمة عالية السمُوّ في النفوس الصافية.

تتسم المجموعة بالصفاء الروحي و النفسي، و تأكيدها على الإعلاء من شأن القيم الروحية والنفسية، لترسيخها في دروب الجيل من جديد، بإعادة التأكيد عليها في كل مناسبة دون التردد في ذلك.

الوصـــــيّة..

غضب جدّي.. جدّي الذي يسهر من أجلي اللّيالي.. وأسقاني من الحب و الودّ، ما لم يخطر ببالي، فهو يدلّلني ويربّيني وأنا وحيده من الأحفاد.. لا أخ، لا أخت ولا حتّى غوالي، فقد غابوا في أحلك الّليالي، بحادثتين على التّوالي.

الأول، كان غرق أخي أحمد وأختي سالي، والثّاني كان سقوط أحد المباني.. لم ينج منهم أحد. غَضَبُ جدّي اليوم كان نتيجة إهمالي، فأنا ألعب على ظهر "السّيبة" فرحا لا أبالي، إلى أن سقطتُّ على أغراض البيت والأواني في الحقيقة، كدت أموت لولا رحمة الباري، هرع جدّي إليَّ وناداني: ما الذي حصل أيّها الشّيطانيّ؟

يناديني بالشّيطاني.. وهو الّذي بأحسن الأسماء سمّاني! لكنّي أستحقّ ذلك، فقد دمّرت المكان ولم أبالِ فاستشاط غضباً، "وبالباكور" رماني. عدتُ إلى حضنه بعد ساعة متودداً طالباً صفحه، وقلت: "جدّي.. أرجوك أن تسامحني".

قال: ما الذي دفعك للصعود على "السّيبه"؟

قلت بأسف: كانت لحظات طيش جاهلة.. لم أتوقع السّقوط عنها!

قال: حسناً، الحمد لله الذي سلّمك هذه المرّة

قلت: ولكنّي يا جدّي تسببتُ بإتلاف أغراضك.. وكسرتُ فانوسك و صحون جدّتي.. وبعض الأواني!

قال: انْتهِ عن ذلك ولا تعد لمثل هذا اللّعب! أنا أسعى لأن تحظى بطيب الحياة قبل رحيلي، فأنا لن أعيش لك العمرين.. قدِّر محاولًا، وساعدني في أن أسعَد بك شابّاً خلوقاً.

في تلك اللحظات.. ازدحم صدري ضيقاً ورحمة بعينيّ جدّي الناعستين وفي حالة تقارب اللاوعي قلت:- وقد مسحت بيدي دموعه الجليلة- أعدك يا جدّي أن أعيد كلّ شيء كما كان و أحسن.

قال: فقط تابع دروسك وتفوّق بها وسأكون بذلك مسرورًا. ما ضاع منّا سيعوّضنا الله به خيرًا. والآن قم واكنُس الأرض من آثار الزّجاج المكسور.

ومما يستحق أن أذكره، أنّني كنت معجبًا كثير الإعجاب بجارنا محمود، رجل هادئ الطّبع، دمث الخلق، يقدم على مساعدة كلّ الناس. وما كان يميّزه أنّه لم يتلقّ تعليمه وليس لديه أدنى فكرة عن المدارس.

كنت أراقبه، وكنت أكتشف كلّ يوم أنّ الجار محمود لديه من الصّفات الحميدة الشّيء الكثير.. وفي حال غضبه كان لا ينطق إلاّ بـ " الله يهديك"

كان محمود وحيدَ والدته، لأب ثريّ كثير الصّدقة.. كثير القيام والصّيام، ومحبوب من الجميع، علِم محمود بما اقترفتُ و أتلفتُ في بيت جدّي. فناداني بصوته الهادئ: تعال يا يزن وأخبرني بما جرى وكيف لك أن تُغضِب جدّك.

- قلت: في الحقيقة لقد أخطأت، فقد أتلفتُ الكثير من الأواني في المنزل.

- قال: حسنًا، سأذهب معك بعد صلاة العصر واحرِص أن تتواجد هناك، سأسعى لك بنيل رضاه ومسامحتك.

- قلت: أشكرك على ذلك، فأنت بمثابة أخي الكبير.

- قال: أودّ منك أن لا تكون شقياً في البيت، كُنْ هادئًا و عونًا لجدك. فكما تعلم هو طاعنٌ في السن ولا يستحقّ منك إلا جميل التعامل، والحب و الاحترام.

وما هي إلا ساعة حتى رُفع أذان العصر. ذهبتُ و محمود إلى المسجد.. في الواقع لم أكن ملتزمًا بالجماعة أو زيارة المسجد، لكنّي أودّ أن أذكّر محمود بزيارتنا، وبعد الصلاة ذهبتُ وإياه إلى البيت.. وكان جدّي قد عاد من المسجد القريب - رأيته كيف يمشي الهوينى، ويحاول الاتزان، حتى لا يقع أرضًا.

هرعنا إليه، وسندناه.. سأله محمود عن أحواله، فكانت إجاباته مُقتضبة - وكأنّه يومِئ إليّ بالعتب-، حاولتُ التزام الصمت وكأنّي لم أفهم.

وصلنا البيت، ودعا جدّي محمود لاحتساء كأس من الشّاي.. فأجاب بالقَبول. تبادلنا أطراف الحديث.. ومع

مرور وقت قصير بدت على جدي ملامح الهدوء.. وانشرحت أساريره، وأخذت الضحكة والقهقهة مكانها على مُحياه.

شعرتُ براحة وطمأنينة.. جدي قد سامحني.. ولكنه مجرد شعور!، استأذن محمود بالذهاب، ولم يتكلم مع جدي في موضوعي وكأنّه لا يريد إثارته من جديد.

غادرَنا بهدوء.. وودعناه شاكرين له حضوره. نظر إليّ جدّي مليًّا، وأطال النظر.. قال لي تعال واجلس جانبي لأروي لك قصّة جميلة. سعدتُ.. وأسرعتُ إلى جانبه مُسلّمًا كل حواسي و متشوّقًا لسماع قصّته. فقصص جدّي فيها المتعة والنصيحة، وذات مغزىً وهدف. حدّثني جدي، فقال: كان يا ما كان في زمان ليس بقديم الزمان. يعيش ببلدنا رجلا شيخًا صالحًا عظيم الشأن، وكان له ولد. كان حبّه لولده أكبر من أيّ شيء.. كان المدلل الشّقي والصاحب الصغير.

لكن حال ذلك الولد كان يختلف عن حال أبيه، لأنّ له صداقات من أسوأ الصداقات.

كان شيخنا هذا يحاول جاهدًا أن يحسّن نشأته، لكنّ الجهد مع ولده عبث، فهو إن صحّ التعبير" كالقربة المخرومة ".

ومما كان يطيل صبره على ولده، قصّة سيدنا نوح عليه السلام وابنه الكافر، فيقول في نفسه "ومن أنا من نوح -عليه السلام- !!..على كل الأحوال الصبر والهداية من الله". كان ولده لا ينفكّ عن تكرار المشاكل مع الناس، والشيخ يدفع ثمن أفعاله. هرم الشيخ.. وأصبح طريح

الفراش، يزداد قلقه على حال ولده ويَرقب اللحاق بالرفيق الأعلى.

ذات يوم، دعا ولده للجلوس إلى جانبه.. ربتَ على كتفه، وقال له: لم أطلب منك طيلة حياتي طلبًا واحدًا يُثقل عليك، أمضيتُ سنين عمري ساهرًا على راحتك ملبيًا لمطالبك و دافعًا عنك أذاك لنفسك. لكنّك بكلّ أسف لم تستطع على الأقل أن تنقذ نفسك وتصلحه.

على كلّ حال، سأوصيك بوصية تعمل بها بعد موتي مباشرة، احرص على الالتزام بها فهي آخر مطالبي، وتذكر أنّك سترث من بعدي الكثير من المال والعقارات.

أكمل الشّيخ وصيته قائلا : أوصيك يا ولدي أن تبقى على ما أنت عليه من زنا ولعب قمار وخمر. فإن أردت أن تلعب القمار، فلا تلعب إلا مع "شيخ اللاعبين". وإذا أردت شرب الخمر، فاذهب للحانةِ بعد العِشاء. واذهب للزنا بعد انتصاف الليل أو أوائل الفجر.

قاطع يزن جده مستنكرا: ولكن يا جدي.. هذه ليست وصيّة!

فأجابه: أعلم، وهذا ما قاله فعلًا الشاب لوالده. لكنّ الشيخ أشار بالسكوت وتنفيذها بعد موته.

مضت أيّام قليلة، وتُوفي الوالد الشيخ.. كان حزن ولده عليه كبيرًا، وكان قد أحسّ فعلا بنعمة الأب.

لكن الشاب في مِحنة، فوصيّة والده كانت تأكيدًا لاستمرارِ فساد أخلاقه. ففكر لوهلة "ماذا أراد والدي من ذلك؟ ما الذي يرمي إليه؟ هل أراد أن أفقد جميع الأموال ويسوء حالي؟.. هل؟ وهل؟"

توالت الأفكار في رأسه، وخرج بقرارِ خوض المعركة.. ذهب لمقابلة إحدى النساء في "الماَخور"، وهناك سأل إحداهن عن صاحبة المكان. وعندما قابلها .. كانت كائناً لا حياة فيه، يخلو من أيّ معنى للإنسانية أو حتّى الأنوثة. رحبت به، وطلب منها مقابلة أجمل ما في ذلك المكان من نساء

وما كان لها إلا أن تبتهج لذلك، وتأتي بأجملهن، كانت فتاة يافعة، فائقة الجَمال.. وطلبت منه مرافقتها إلى غرفتها.

قال لها: لن أرافقك الآن. سآتي بعد منتصف الليل

هي: لكنه موعد انتهاء عملي

هو: اذهبي الآن، و سأدفع لك المقابل.

هي: سأنتظرك في الغرفة رقم خمسة. وما عليك إلا أن تدقّ الباب لتجدني بانتظارك.

خرج وكان يفكر بسرّ تلك الوصية، وعند انتصاف الليل، لبس هندامه ووضع عطره الثمين وتحرك باتجاه الحسناء. كان يمشي بثباتٍ واثق الخطى ،إلى أن وصل إلى باب الغرفة رقم خمسة.

طرق الباب، وقالت الفتاة أدخل، الباب مفتوح.

دخل الشاب الغرفة.. وجد امرأة غير الّتي تمّ الاتفاق معها. فهو رأى "باربي" أما هذه فقبيحة الشكل.. إجمالًا هي عجوز شمطاء.

قال: أتأسف، أتيت لمقابلة فلانة !

هي: أنا فلانة

هو: ولكن الفتاة التي اتفقت معها على درجة عالية من الجمال!

هي: "يعني مش عاجبك؟.. أنا يا ما سقط تحت رجليّ رجال بشوارب".

فكّر.. دفع الحساب وغادر. خرج مسرعًا، يريد فقط التخلّص من هذا المكان المشين. وصل بيته وجلس مفكرًا .." ماذا فعلت !؟ "، ذهب لفراشه قلقًا ينتظر طلوع الشمس حتى ينفّذ البند الثّاني من الوصية.

في عصر اليوم التالي ذهب إلى مقهى مشهور يقع على أطراف المدينة، جلس على الكرسيّ.. وانتظر الجرسون، وعندما حضر بادره بالسؤال: ألديكم من يلعب القمار هنا؟

- نعم، أكثر من يجلسون هنا يلعبون القمار.

فقال: أريد "شيخ اللاعبين"

نادى الجرسون على رجل يدعى "عيسى".. هو رجل أشعث الشعر، ذو لحية طويلة وشواربَ صفراء من فرط التّدخين! رائحته كريهة وخطواته غير ثابتة.. حذاؤه قديم متهرئ، وكأنه آتٍ من عالم آخر.

نظر إليه وإلى حاله.. فقال: هل أنت شيخ اللاعبين؟

عيسى: نعم. أنا هو شيخ اللاعبين. ألا يعجبك؟!.

قال: أكيد لا. إن كنت أنت شيخ اللاعبين وهذا حالك، فما حال الآخرين؟.

قال: اسمع يا هذا، "أنا خسران وزنك مصاري".

رد: انظر لنفسك فحالك يُرثى لها وملابسك ممزّقة. فإذا كنت فعلا خسرت وزني مصاري فلِم لم تُحسّن من حالك؟.

قام صاحبنا عن الكرسي.. وانصرف تاركًا عيسى والجرسون في ذهول..، جدَّ في سيره إلى المنزل، واختلى بنفسه، عله يجد تفسيرًا آخر للوصيّة التي لم يستطع تنفيذها.

خلد للنوم، كي يصحو في منتصف الليل لتنفيذ الوصيّة الثالثة. وبينما هو مستغرق في نومه، رأى والده ينظر إليه مبتسمًا ومستهزئا به.. فزع من نومه، فإذا بالليل قد قارب على الانتصاف.

خرج من بيته مسرعًا.. وذهب لأكبر حانة، وعندما دخل.. ذُهِل مما رأى!

رأى العديد من الرجال الملقون على الأرض الّتي امتلأت بقيئهم، ورجال بحالات أبشع من ذلك.

ذهب لصاحب الحانه وسأله عن حالهم..

قال له إنه أمر اعتيادي جدا!

خرج من ذلك المكان مسرعًا إلى بيته، لا يهتم لأمر شيء إلا أنّه يريد اللجوء إلى فراشه من هول ما رأى.

وفي صباح يوم جديد.. عاد ليسأل نفسه " ما الهدف من وصيّة أبي؟ "

في هذا الصباح.. توصل الشاب إلى أنّ حلاله من النّساء هي الأجمل والأنقى، وأنّ القمار يغير الحال، فأثرى أثرياء اليوم هو أفقر الفقراء غدًا، ليس فيه سبيل لاستقرار، ولا عيش هنيئًا.

أما بالنسبة لحانة الخمر فهو لن يضع نفسه موضع أولئك الرجال ، فأنشد قول الشاعر:

بكيتُك يا أبي بدمعِ عينــي　　　فما أغنى البكاءُ عنّي شيئًا

وكان في حياتك لي عِظاتٍ　　　فأنتَ اليوم أوعظُ منكَ حيّا

- والآن يا يزن، ما رأيك فيما سمعت؟!

- الله يا جدي.. إنها من أعجب القصص وأغربها، وفيها من العبر الكثير.

- هي الحقيقة، هذا هو محمود.. الذي هو من أنبل الناس وأفضلهم. لم يستطع والده تغيير حاله في حياته.. لكنّه تغيّر بوصيّةٍ في مماته.

ذهِلَ يزن من ذلك!، وعزم على أن يتبع خطى جده الصالح ..فالثابت في نهاية المطاف هو حسن الخلق.

الصّـــــرير ..

مشى ببطء وحذر..، ثم انتبه، وسأل نفسه عن سبب تباطئه توقف لبرهة، ثم مشى بخطواتٍ أسرع دون أن يُجيب على سؤاله لنفسه، دار حول منزله محاولا تحديد جهة الصوت.رغم صفاء ليالي الصيف ونسائمها الباردة التي تأتي في مثل هذا الوقت.. إلاّ أنّ الظلمة الحالكة تفسد أي متعة.. بدا له وكأنه يلتفّ حول نفسه.. ربما تشابه الأمكنة.. وربما هي العتمة تجعل الأمكنة متشابهة.. قال في نفسه.

شَعَر وكأنّ الأرض طينيّة تمنعه من تتبّع أثر المخلوق الّذي يصدر صوت صرير مزعج يمنعه من أن يغفو.. يمنعه من التفكير بهدوء.. يمنعه من ترتيب الماضي.. الذي ينفلت على ذاكرته بصور مختلطة ومتداخلة.. نظر إلى السّماء.. كان القمر محاقاً.. وهو الذي يشكو من تعب بصره حتّى في النهار!.

لم يمنعه ضعف بصره والظلام الدّامس من التراجع والعودة إلى البيت.. بل زاد إصراراً على أن يظفَر بمن يتسبب كلّ ليلة بإزعاجه ومنعه من التّمتّع بأي شيء.. حتّى النوم!، وطاف من جديد بالمكان.. يصارع

العتمتين.. عتمة اللّيل.. وعتمة بصره.. وما تعانيه عينيه، بدأت أنفاسه تتسارع، وكأنّها في سباق مع نبضه المتسارع.. وكان كلّما شَعَر بالتّعب.. شعر أنّ ساقيه تنطلقا أكثر وأكثر وتزداد سرعته.. تذكّر حين كان يركض في ذات البيدر ليلا ووالده يلحق به..

" لم أكن أترك له فرصة للامساك بي حتّى أصل أكوام القشّ والسنابل.. وهناك.. كنتُ كما الفأر أدخُل جحري الذي أعددته قبل أن تغيب الشّمس.. كان يتوعّدني.. ثمّ يعود مُقسما أنّه لن يؤذيني إن خرجت.. ثم يقسم أنّه سيشتري لي الحلوى.. ينتظر قليلا.. ثم يقسم أنّه لا يستطيع النّوم إن لم أكن بين يديه أو أمام عينيه.. وذات شقاوةٍ واختباء كنتُ أشعر بغصّة في جوفه.. كانت تُصدر صوتًا غريبًا.. فخرجتُ مذعورًا.. ولا أدري سبب ذعري وصراخي وألقيتُ بنفسي إليه وصرخت.. بل كان بكائي هو الذي يزيد من صراخي! حضنني.. ومرات قبّلني".. لكن.. انتظر.. ذلك الصوت بم يذكّرك!؟.. ثمّ ألا تتذكّر فعلا سبب ذُعرك؟.. ربّما كان الصّوت!.. تعثّرت قدمه بحجرٍ صغير.. كاد أن يُسقطه.

مدّ يديه للفراغ.. لم يجد شيئا يُمسك به.. لكنّه استعاد توازنه وهو يقول "نعم.. الصّوت".. الصّووو..، وارتفع شيء ما من أمامه بسرعة البرق.

كاد أن يسقط مرّة أخرى.. كان يلهث.. وهو يستدرك أنّ هذا صوت رفرفة أجنحةٍ ما، وماذا سيكون! لا بدّ وأنّه خفّاش اللّيل.. فهو يسكن هنا منذ زمن بعيد..شعر بتعبٍ شديد، بينما قلبه كان يخفق كقلب طفل ملأه الخوف

والقلق.. عاد باتّجاه البيت، وما هي إلّا خطوات - وكان يتلمس جدران بيته -.. وصل إلى غرفته الّتي أحبّها.. وكم أحبّ زوجته الّتي فاجأته بالسّؤال: "ما بك يا غالي؟"

قال - وهو ينظر إلى الفانوس المعلّق - : كدتُ أسقط من ضعف بصري، ومنذ لحظات.. أرعبني خفاش أحمق ملعون، طار من أمامي.

قالت: ألم أقل لك بأن تنتظر وألّا تخرج في هذا الظلام الحالك؟!

قال: لقد أزعجني الصّرير وأقلقني.. وها هو يُعاود إطلاق ذات الصوت.. هل تسمعينه؟.

قالت: سيعود ابنك محمد بعد قليل، وهو سيتكفل بهذا الصّرير.. سأعدّ لك كأسًا من الشاي بالنعناع لتهدأ أعصابك.

قال: يسعدني ذلك.. لقد أرعبني ذلك الخفاش اللعين

قالت: ما بكَ يا رجل.. أتخاف من خفاش !؟.

قال: صُبّي يا امرأة.. أنا لا أخاف شيء، وأنت تعرفين ذلك جيدا. لكنّه فاجأني وهو يرفرف بالعتمة، وأنا أسمع صوتًا ولا أرى شيئا.

قالت: وها أنت قلتها.. (تعيش وتأكل غيرها).

قال: أتسخرين مني!.. هل تريدينني أن أتزوج بأخرى لتتأكدي أنني ما زلت قويًا ولا أخاف شيئا؟.

قالت: هيه يا أبا محمد .. لقد فات أوان ذلك.. ورجاؤنا حُسن الختام.

اكتفى بابتسامة.. ثم قال: نعم.. سقا الله أيام الشباب!

قالت: لكلّ زمان دولة ورجال! ألم تردّد هذه الجملة أنت حتى حفظتُها أنا؟ والآن ندرك معناها معًا.. الآن دَور غيرنا في الحياة.

قال: ماذا حل بالشاي؟.. وانتبَه إلى ابنه محمد يدخل مبتسمًا.. تبدو على وجهه ملامح السرور.

بادره بالسؤال: ألا تسمع صوت الصرير؟.. ولا أريدكَ أن تقول لي أنه سيذهب وحده.. إنه يزعجني ويثير القلق في نفسي..، فأعدَمُ النومَ حتى الصباح.. ألا تسمعُهُ يا بني؟.

قال محمد: حسنًا يا والدي، سأخرجُ بعد تناول الشاي معك.. ولن أعود إلاّ إذا أمسكت به.. أو أطارده حتى يرحل من هنا وإلى الأبد.. أيضا أريد أن أخبرك بأمر طيّب، فما هي البِشارة؟

قال: قل ما عندكَ يا بني.

قال: أخيرًا توصلتُ ومعي صديقي يونس من تحصيل تأشيرة الموافقة على السفر.. وقد أتممنا كل الإجراءات، والحمد لله يا أبي.. لم يتبقّ إلا دعاؤكما

قال: وكيف تجرؤ! .. كيف طاب لك أن تفعل ذلك!..، ومن لنا من بعد رحيلك؟.. ألا ترى حالنا أنا وأمك..؟

قال محمد: أبي يجب أن لا تحرمني هذه الفرصة.. وأن تمنحني الإذن بالسفر.. أبي.. انظر إلى حالي وحالنا..

نحن نحتاج إلى المال.. فالدخل هنا يكاد يكونُ معدومًا، ونحن لا ندري أنّ ما أجنيه من عملي.. أيكون للبيت أو لسداد الديون المتراكمة..؟ أبي أرجوكَ أن تمنحني فرصة لأجرّب.

صاح (أبو محمد) بزوجته، وقال: جهزي فراشي.. ولا أريد الشاي.. النوم وكوابيسه أرحم من هذا الذي أسمعه.

دخل غرفته.. وسرعان ما غطّ بنوم عميق وارتفع شخيرُه .. نظرت الأم إلى ابنها نظرة سريعة معاتبة ولحقت به.

جلس محمد يملأه الهم والحزن.. سمع صراخ والده - المعتاد- كلما نامت عينه.. أيٌّ كوابيس لعينة تغزوه حين يغفو!

انتبه محمد إلى الهدوء الذي عمّ الليل في الخارج.. نام أبو محمد.. وزوجته نامت.. وانتهى محمد من ترتيب حقيبته.. وهمّ بالخروج.. لكنه توقف، وعاد ليُلقي نظرة أخيرة إلى والديه.. كانا يغطّان بنوم عميق.. وقف على باب البيت.. ومع أول خطوة.. أوقَفه سؤال وكأنه شيئا قاسيًا ارتطم برأسه.. للمرة الأولى يجده سؤالا لا بد وله من إجابة.. أين الصرير..؟ أين الصرير..؟ أين الصرير..؟ ظلّ يمشي ويسأل حتى سمع صوت الصرير بوضوح.. هناك بدأ يلهث ثم غاب في العتمة.

الحـــلـــم..

تلك الرائحة تقتلني، تُميتني.. أنا أعرفها!، قام من نومه صارخاً فزِعًا يعلو بصوته: إنّها رائحة الموت! إنّها رائحة الموت!

أفاقت سعادُ من نومها.. وضعت يدها على رأسه لتقرأ عليه المعوّذات، لعلّه يهدأ قليلاً.

كان العرق يتصبّبُ من وجهه وكأنه جالسٌ أمام فرن بدائيٍّ.. لا يفصله عن ناره سوى مسافة قصيرة.

هدأت نفسه قليلًا وطابت.. نظر إلى وجهها الصبوح.. فانشرحت أساريره. فهي امرأةٌ إذا نظر إلى وجهها سُرّ بها.

حاول اصطناع البسمة.. لكنّها كانت تُخفي في ثناياها خوفًا دفينًا ورعبًا لم تعهده سعاد أبدًا.

سألته باستغراب، وقلبها يعتصر ألمًا: إلى متى هذا الحال؟ ألم أنصحك مرارًا أن تقرأ المعوذات ودعاء النوم قبل أن تخلد لفراشك! انت لستَ مريضاً، لا تعاني شيئا، فقد ذهبنا إلى الطبيب النفسي، بل حتى زرنا

الشيخ أبو محمد مرات ومرات، وقد أجمعا أنك لا تعاني شيئًا.

نظر محمد إليها نظرة تائهة، وكأنه يقول لها: أنت تقفين إلى جانبي بحزم وتهدّئين من روعي، لا شك في ذلك. لكن، هناك مشكلَة.

نهض من فراشه، اغتسل، وعاد لغرفته، أمسك المصحف لتلاوة القرآن لتقرَّ عينه ويهدأ.

مضت سويعات قليلة، وهو يفكر، ويسأل نفسه: "ما الحل؟ لقد ذكرتُ أعراض ما أنا فيه للجميع، لكنّني لم أجد من يرشدني إلى الحل حتى الآن".

فكّر.. فخطر بباله أن يسافر فترة قصيرة، فربما بتغيير الجو والأشخاص من حوله، يخرجه من عالمه هذا، ليدخل في عالم آخر.

تنبّه للفكرة. فذهبَ إلى سعاد وقال لها: عزيزتي، ما رأيكِ لو ذهبنا في رحلة داخلية نغير فيها أجواءنا، فربما تُريح نفوسنا وتُهدئني؟

قالت: فكرة جميلة، إلى أين الوجهة؟ ما رأيك بالعقبة؟ فنحن في شهر شباط، وفي هذا الشهر تكون الأجواء ممتعة.. والله إنها فكرة ممتازة.

قال: إذًا غدًا تُجهّزين الأولاد، لننطلق فجر بعد غد بإذن الله.

قالت: حسناً، ولكن، أخبِرْ أخي أحمد ليكون في استقبالنا.

في اليوم التالي، استيقظ محمد باكرًا، تفقّد سيارته وجهّز لوازم الرحلة، سار فجر اليوم التالي على مهل، فالطريق تستغرق خمس ساعات للوصول، وأحمد يرجع من عمله في الميناء بعد خمس ساعات، فكان لا بدّ له من أن يسير على مهلٍ وتأنّ.

كانت الطريق ممتعة جدًّا، حيث شغل الراديو على أغان شعبية، وبدأ الأولاد يتفاعلون، ويرقصون كأنهم في عرس شعبي حقيقي.

وبينما هو يقود السيارة، كان يختلس النظرات إلى أولاده ويبتسم مسرورًا.

وظلّوا كذلك، حتّى وصلوا "رأس النقب"، اقترح محمد أن يتوقفوا لتناول طعام الإفطار، فوافقوا فورًا.

كانت هناك لسعة برد في الجو، فاقترحت سعاد أن يتناولوا طعامهم في السيارة، وكان لاقتراحها صدىً إيجابياً في نفوسهم جميعًا.

كان أحمد قد أخذ مغادرة لمدة ساعتين من عمله؛ لإحضار لوازم الغداء، وما أن فرغ من ذلك، حتى وصلت عائلة محمد، استقبلهم بحرارة بالغة، وعرض عليهم الدّخول للراحة والاستحمام، حتى تنتهي زوجته سامية من تحضير الغداء.

وبينما محمد مستلقٍ للراحة، عاد ليراوده ذلك الحلم. لا بدّأنه لحقه بمركبةٍ أخرى أو تسلّل إلى حقيبةِ ملابسه، ليقوم بهجومه الشرس على محمد، وقت راحته.

نهض محمد، وخرج إلى حديقة المنزل، لم يكن هناك سوى قطتان.. فوقف ينظر إلى القطط ويفكر، حتّى راودته فكرة أنَّ الدواء أحيانا يكون من نفس الداء.

دخل للبيت مسرعًا، وطلب من سامية أن تعطيه "جلد الدجاج"، أخذه.. وقدمه للقطط، وجاء بالماء ووضعه أمامهما.. لعل في إحسانه لهما مخرجًا مما هو فيه.

على الأرجح هذا هو مخرجه، فقد قتل محمد يومًا ما قطة.. ربما كانت السبب في بلائه، و رعاية أخواتها القطط ربما يكون تكفيراً لذنبه.

سُرَّ محمد كثيرًا لذلك، ودخل، وتمدّد على فراشه، حتّى أيقظته سعاد للغداء.

نهض من نومه سعيدًا.. فالحلم أخيرًا غادره إلى غير رجعه.. العلاج كان في الماء و جلد الدجاج.. أما هو، فقد بدأ منذ ذلك اليوم، يعطف على كل الحيوانات ويحنّ عليها. نظر من حوله وتساءل في نفسه عن الكابوس الذي راوده، نهض، وقبل أن يخطو نظر باتجاه الروزنامة المعلقة على الحائط، طالع التاريخ بإمعان .. ابتسم ثم مضى.

الحـــــدس ..

رغم صدمتها بذاك القرار القاسي.. إلا أنها حاولت أن تتماسك من هوله.. وقع كصاعقة قذفتها السماء بسرعةٍ هائلة، ضربت الأرض بقوّة وعُنف، لتحرق كل ما كان عليها. نعم.. احترق قلبي.. وما حوله، وما نبت فيه منذ ذلك اليوم، ولو عود واحد.

لكن، كان أكثر ما يدهش ويذهل.. هو ذاك الصمتُ الذي أطبقَ على سمعي وبصري ولساني.. لقد كنتُ أشبَهَ بصمّاءَ بكماء، لا أبصِر.. وكأنّه حصارٌ من الصمت والذهول.. وكأنني محاطة بفراغ أسود لا حدود له ولا دروب.

ما الذي أخرس جسدي كاملًا، وكأن مسًّا أصابه.. فعطّل كل أوردتي وأعصابي، أيّ شيءٍ هذا الذي مكنتُه مني أو أنني لم أصمد أمامه. أي ضعف شلَّ دموعي

وصراخي، وكأنني، أبدأ بتحسس الخطوة الأولى في رحلة جنون.

أمسَكَت بالباب، وشريط الذكريات.. يمرّ بسرعة من ذاكرتها النازفة، في ثوان معدودة.. كان الزمن بطيئا وثقيلا.. رنّ الهاتف في صبيحة يوم سبتٍ، لكنّها لم تُجب.. ما زالت رغبة النوم تسري في كل جسدها.. وكعادتها تشعر بتثاقل..، رنّ الهاتف مرة أخرى، فتأففت.. وبنظرةٍ منبعثة من نصف عين إلى النافذة، استدركت الربيع وأجواءه الباعثة على السرور، والتفاؤل.. لطالما حَمَل إليها الربيعُ أخباراً سارة ومختلفة.

رفعت رأسها قليلًا، ومدت يدها ببطء، وأمسكت بالهاتف.. تسلل صوته كرذاذِ مطر ناعم..
- صباح الخير يا عمري.

- صباح الخير رامي.. ما أجمل نهاري.. يداعب خدّ وردةٍ جورية.
- كيف أصبحت حبيبتي.. أعرف أنني أزعجك في هذا الصباح الباكر.. ولن أعتذر.
- لا عليك حبيبي.. لم أنزعج.. أنا سعيدة باتصالك.. من أين تتكلم..؟.
- من البيت.. وصلتُ الفجر من سفري، وبقيتُ مستيقظاً كي أتصل بك.. لم أتمكن من النوم، ولم أتمكن من تأجيل الخبر حتى أصحو.. تخيلي!

- أي خبر؟.. تحدث، ما الذي لم تقدر على تأجيله؟.. هيّا أخبرني حبيبي.. بسرعة أرجوك
- انهضي أولاً من فراشك وتناولي إفطارك.. بعدها سأتصل بك وأخبرك.
- بالله عليك.. صدّقني، لن أتناول لقمة واحدة إن لم تخبرني أولا.. هيا أرجوك!
- هكذا إذن.. "طيب" استعدّي هذا اليوم في المساء جيدًا، سآتي وأهلي لزيارتكم لخطبتك. ها..؟ ما رأيك..؟
سقط الهاتف من يدها.. وركضت تصرخ "أمي.. أمي".. متنقلة من غرفة إلى أخرى.. وقد نسيت رامي على الهاتف، والذي أطلق ضحكة.. رافقتها بحّة صوته.
- ما بكِ يا بنتي؟ هل جُننتِ أم أصابك مَس!.. على رِسلِك.. اهدئي وأخبريني.. ما بك !؟
- أنا أسعد فتاة على وجه الأرض.. هذا اليوم هو يوم سعدي.
- أتمنى أن تغمر السعادة كلّ أيام حياتك.. ولكن أخبريني عن سبب هذا الفرح والسعادة!
- سيأتي رامي وأهله مساء اليوم، لخطبتي
- هنيئا لك، وأتمنى لك التوفيق ودوام السعادة.
لم تَطل خطوبتهما.. ومّرت الأيام حلوة وسعيدة.. ثمّ جمعهما الزواج في بيتٍ صغير رتّبا له طويلا.. كانت أيام الزواج أكثر حلاوة وسرعة.
وبعد شهر من الزواج.. كان لا بدّ لرامي من السفر في الصباح الباكر، تاركاً "لانا" تذرفُ دموعها المُرّة على فراقه الذي جاء أسرع من أن تنتبه لقدومه.

ما يقرُب من الشهرين كان غيابه، مرّ كأنه سنين.. احتضنته بشدةٍ وعفوية وهي تستقبله.. بعد أن فتحت له الباب، والسعادة تغمر قلبيهما.

لم يمكث إلا أسبوعًا واحدًا.. مرّ كلمح البصر، ثمّ بدأ يستعد للسفر من جديد.. غادر رامي وأخذ معه روحها وصبرها.. شعرت أنها فراشة تائهة في صحراءٍ لا ينبتُ فيها إلاّ الرّمل، ولا تنجب إلاّ السراب.

مرت الأيام ثقيلة وبطيئة.. داهمها كابوس نثر نومها وسكينتها.. وأشاع ظلامًا دامسًا في نومها، ووحدتها.. انتظرته وهي تعدُّ الزمن بنبضها المضطرب والمتسارع..

وبعد عدّة أسابيع، اتصل بها ليُبلغها موعدَ وصوله وعودته إلى البيت.. فأخبرته بلهفة وشوق أنها بانتظاره على أحر من الجمر.. ورجته أن لا يتأخر.

لقد كان الفِراق قاسيًا أول مرة.. وفي الثانية كان أشدّ قسوة ومرارة.. ما جعل رامي يصرخ في داخله " إلى متى.. أنا هنا وهي هناك.. إلى متى هذه الغربة القاسية ".

حين وصل البيت.. كانت تستقبله كنار حامية، وقد شعرت به على غير العادة.. ساكنًا، وأحسّت بفتوره الغامض.

أمضى يومه الأول بشرودٍ وصمت.. والجمر يتقلّب في فؤاده.. وأسئلة تهدرُ في وجدانه.. أشباح تطارده كلّما نام أو أخذته غفوة..

وحتّى في اليقظة، رأى الأشباح تطارده.. ورأى أنّه يهرب، وقد كاد يسقط في مرتين، رأى نفسه فيهما يقفز عن مبنى مرتفع..
وشعر بالألم، وهو يرى أنه يحاول صدَّ الكابوس الذي يهاجم حبيبته في منامها.. إلاّ أنه كان كمن يركض مكانه.. وكأنّ شللاً أصاب أطرافه.. وصوته لا يطاوعه، فيصرخ بأعلى صوت.

سافر رامي.. وبقي كلّ ما يشعر فيه داخله.. كان يقول: "هو ألمي.. وعليّ أن أحتمل وحدي ما أعاني".

غادر.. وكعادتها.. وقفت أمام البيت تودّعه بدموعها ورجائها بأن يعود إليها سريعًا بالسلامة.
عاد رامي بعد مرور أسابيع، والحالُ ليس حاله.. منهكًا.. وقد نال منه التعب والإرهاق.. كان أبرد من قالب الثّلج، وهو يقف أمام الباب.

ركضت إليه لاحتضانه.. وقبل أن يصدها، وبلطف، قال لها: "أنتِ طالق".

حاولت أن تخرج من ذهولها وصمتها، وذلك السراب الذي حاصرها.. لكنّها لم تتمكن، رأت كابوساً، يقفز من عينيه، وهو يرى في ذات الوقت، أشباحًا تقفز من عينيها.. وجدت مساحة ضئيلة انقشع منها السراب، فقالت "بشفاه مرتجفة": رامي لا تقلها حتّى لو كنت تمزح.. فهذه واحدة من الثلاثة اللّواتي **"جدّهن جدِ، وهَزلُهُنّ جدّ"**.. أرجوك.

ثمّ لفّها السراب.. وما عادت تحسُّ إلا بصوته، يأتي كوَشوشة تأتي من بعيد، وقال: "والألم يعتصر قلبه" : صبرتُ.. فصبرتِ أنتِ.. عانيتُ.. فعانيتِ أنتِ.. أخطأتُ أنا.. فأخطأتِ أنتِ. هذا حدسي، وحدسي لا يكذب.. فأنتِ طالق.

اللّــقيــط ..

في ليلةٍ من ليالي الربيع الدافئة.. تنساب نسمات لطيفه على محيّاها. جلست على شرفة منزلها المطلّة على البحر.. ترتشف فنجان قهوتها، تنظر إلى البحر.. تتيه وتسرح في خيالها مع كل رشفة منه.. تعود إلى ذكريات الأيام الخالية، تارةً تبتسم.. وأخرى ينقلبُ الخيال على وجهها، فيعكس شحوبه وشحوب نور البواخر الرّاسية في عينيها.

اجتاحها شعورٌ غريب.. لم تعهده من قبل. وكأنّه يحثها على استغلال اللّحظة، ليضفي عليها جمالًا.. ربما يقودها إلى القهقهة.

داعبت النسمات البحرية الربيعية خصلات شعرها الأشقر.. الذي تدلّى على وجنتيها، فزادها سحرًا فوق سحرها.

كانت تلك الخصلات تحمي وجنتيها.. وكأنها تخاطبها في حركاتها وتقول لها "قرّي عينًا يا جميلة.. فأنا حارسة وردتيك الحمراوين".

وبينما هي غارقة في هذه الأجواء الشّاعرية.. اكتملت رومانسيتها بعودة سليم إلى المنزل.

جاءها من خلفها.. وضع كفيه على وجنتيها بلطف.. قَبّل رأسها بحنان، وكأنّه لا يريد أن يغيّر تقسيمة شعرها الّتي صففتها هي والنسائم.

هو: مساء الخير حبيبتي

هي: أهلا بعودتك سالمًا يا سليم

هو: أنتِ والقهوة والبحر.. لحظات رومانسية تعيشينها.. وأنا المتطفل!!

هي: اكتملت بحضورك حبيبي.. لكن.

هو: لكن ماذا؟ قولي.. هل أنا متطفل فعلاً؟!.

هي: لا تهتم ..هو مجرد شعور لا أكثر.

هو: وكيف؟.

هي: تارة أستمتع بجِلستي، ويساورني شعورٌ جميل.. لم أعهده من قبل، وتارة أخرى، يزعجني شعور غريب.

هو: فهمت، تداخل الأحاسيس لديكِ، يعني أننا يجب أن نخرج للسير على الشاطئ.. فهو الكفيل بالتخلص من تلك الأحاسيس المتشائمة.

هي: يا ريت، لكنّك متعب!

هو: لا عليك، سأبدّل ملابسي.. وأنت أيضًا

هي: حسنًا، سأذهب لتجهيز نفسي.

فتحت خزانة ملابسها.. وقفت تنظر فيها محتارة "ماذا سأرتدي! هذا؟ لا بل هذا.. ربما هذا! "

فكرت كثيرًا.. وما زالت في حيرة، لكنها فنانة في أناقتها وحتمًا ستختار الأفضل.

وقع نظرها على فستان سكّري اللون، تزيّنه وردة حمراء صغيرة على صدره.. تُعطيه مسحة عاطفية.

أحسّت بأنه لا يناسب موعدها مع زوجها، فهو فستان احتفالي.. لكنّ يدها امتدت إليه، ودون سيطرة على تفكيرها ونفسها.

لبسته بهدوء، وحرصت على أن تكون في كامل أناقتها وجمالها، وأضافت على ذلك رشّتان خفيفتان، من عطرها المفضل عند سليم، ليكتمل بذلك المشهد الأنيق.

حضر سليم، وكان الآخر قد اختار "بذلة".. كان اختياره عفويّاً تمامًا، وكان قد تفاجأ أيضًا باختيار زوجته للفستان الرسمي!.

نظرا إلى بعضهما برضى وتسليم.. ابتسم الاثنان.. أمسكت بذراعه.. وكأنّها عروس تُزف إلى أميرها.. وتوجها إلى الشاطئ.

هناك على الشاطئ كشك صغير متواضع، توجها إليه، وطلبا بوظة مغطاة بالشكولاتة، لتبدأ جولتهما حول الشاطئ.

ابتعدا قليلا عن الناس والاكتظاظ، حتى وصلا إلى منطقة خالية.. فجلسا ليكملا البوظة التي أوشكت على النفاد.

جال في خاطرها ربما سنوات زواجهما.. كانت سنوات سعيدة بحلوها ومرها، لكن....

هي: حبيبي .. وهمست له بعينيها.. أن أقترب

هو: ماذا هناك؟

هي: أرى هناك شيئًا به حركه.

هو: نعم، ذاك كيس يتحرك بفعل نسيم البحر!

هي: لا.. لا، لو كانت حركته بفعل نسيم البحر لطار.. أودّ الاقتراب منه

هو: اهدئي يا عزيزتي، ليس هناك ما يدعو للقلق.

جلست، وعيناها تتفحصان حركة الكيس.. بدا عليها القلق وأحسّت أنّ هناك ما يشدّها إليه.

قامت مفزوعة وقالت لزوجها: هيا أرجوك.. قم معي، أريد أن أرى ما في الكيس.

سار الاثنان باتجاهه بحذر شديد، حتى وصلا إليه.. فتحه سليم، وكانت المفاجأة الكبرى!

إنّه طفل!.. بسرعة وارتباك.. حملته وضمّته إليها، وقد فاضت عيناها من الدمع.. "إنه حديث الولادة..

يا إلهي.! ما الذي حدث لك يا صغيري، هيّا.. هيّا يا سليم، فلنعد به إلى البيت.. إنه يحتاج إلى الكثير من الرّعاية".

هذا ما تحتاجه حقا.. طفل.. أمومة.. وحنان.

حاولت ريما أن تُكمل سعادتها بطفل يلوّن حياتها.. ذهبت و زوجها إلى أمهر الأطباء، وأقرّوا جميعا بأنّها عاقر.. لن تنجب أبدًا.

كانت صدمة سليم كبيرة جدًا، لازمته حتى بعد أن رجعا للبيت..

هل سيُبقِي على الطفل.؟ أم سيُرسله للشرطة؟ ويُميت سعادة زوجته التي وُلدَت من الصخر!

لكنّه عطَفَ عليها وأشفق، عندما نظر إلى حرمان عينيها..!

أما هي.. فأخذت تداعب الطفل، وكأنّه وليدها.. نسيت زوجها والدنيا ومن فيها، وحلّقت في سماء الطفل!

صاحت بسليم: ما بكَ تقف هكذا؟ ألا ترى حاله! هيّا أسرع، واذهب للصيدلية، وأحضر الحليب للطفل. قد نفقده بأيّة لحظة!

ذهب سليم، ولم يتوقف الطفل عن البكاء.. حتى صارت ريما تبكي لبكائه، وتهمس له "أرجوك يا حبيبي، أرجوك اصبر.. سيأتي بابا ومعه الحليب.. أسكت يا رزق".

نادته رزق.. دون وعي منها.. وصل زوجها، وأعطته الطفل قائلة: "امسك رزق.. ريثما أجهّز الحليب".

نظر إليها باستغراب.. قال لها: " أأسميته أيضا؟ "

لم تُعِره أيُّ اهتمام، وانشغلت بتجهيز الحليب.. عادت لتلقف رزق من بين يديه.. وضعتهُ في حجرها، وأخذت ترضعه من القنينة، وتنظر إلى عينيه الزرقاوين، وتبتسم ابتسامة عريضة.

قالت: يا الله! الحمد لله الذي وسعت رحمته كل شيء.. الحمد لله الذي رزق العاقر طفلاً.. سأعتني بهذه النعمة ما مكنني ربّي..

أخذت يدها تداعب شعيرات رأسه، والأخرى تخط بسبابتها على وجنتيه.. وسليم ينظر إليها نظرة الشفقة والرحمة، وقال لها: " مبروك علينا رزق.. يا أم رزق".

ذو الأذن المــقطــوعة ..

أفاق من نومه يتخبط ، ويصرخ في زوجته: هيّا، لقد تأخرت كثيرًا. هيا يا امرأة.

فاطمة: على مهلك.. فالشمس لم تشرق بعد.

خليل: ولكنّ طريقي طويل وشاقّ.

فاطمة: وهل ستحمل الحنطة على ظهرك!. في التّأني السلامة.

خليل: وأيّ سلامة هذه، عندما أسير في حر شمسٍ حارقة!

فاطمة: البس كوفيتك.. ستقيك حر الشمس

خليل: الكوفية ستحمي رأسي.. وباقي جسدي ستذيبه الشمس.

قاطعهم ولدهم أحمد - ابن العشر سنوات - : لا تقلق يا أبي. أنا سأجهّز الحمار في دقائق قليله.. لكن أطمع في مساعدتك لنضع الحنطة على ظهر الحمار، فهي ثقيلة وأنا لا أستطيع حملها وحدي.

فاطمة: على مهلك يا ولدي.. فيجب أولا أن أقوم بتجهيز الزوّادة لوالدك، حتى إذا جاع وجد ما يأكله. حاول أن تؤمن له الماء، فالطقس حار.

أحمد: أمرك يا أمي.

خليل: الله يرضى عليك.. وكما تقول أمك، لا تتعجل بوضع الحمل على الحمار.. فقد يتعب، قبل أن أتوكل على الله.

أحمد: حاضر يا والدي، إذن سأقوم بتجهيز الماء للشرب.

سيسافر خليل لطحن قمح الموسم الجديد.. مسروراً في قرارة نفسه، فقد أنعم الله عليه بخيرٍ وفير.. وها هو، يأمل أن يعود لبيته وأهله، حاملا الطّحين.

سار خليل متثاقلاً، ينظر إلى حماره.. يفكر بحال هذا الحيوان المسكين، الذي يحمل حمولة ثقيلة، قائلا: "توكلت على الله، الذي أرجو أن يمنَّ علَينا بالوصول سالمين".

سار، حتى وصل إلى نبع ماؤه لذيذ و بارد. فوقف وأنزل ما على الحمار، وأمدّهُ بالطعام والماء، وبعد أن تناول غداءهُ، عاد ليُتابع المسير، تحت حرارة الشمس الحارقة.

وصل بعد ساعاتٍ إلى المِطحنة، وأنزل ما على الحمار.. أخذ دوره في الطابور، وكان الطحن على آلةٍ بدائية.

جلس خليل يرقبُ حركة الناس ويتابع الدّور بانتظارٍ قاتل. في هذه الأثناء، شيء ما لفتَ انتباهه وأغاظهً.. أحدهم يعتدي على الدور، دون استئذان.

اقترب خليل من رجل يُعتدى على دوره وقال له : أودّ التعرف إليك

الرجل: أنا سعيد

خليل: حياك الله يا أخي سعيد. ولكن ألا ترى أنّ ظلمًا يقع عليك، ولا تحرك ساكنًا! أخبرني، ما الذي يجري هنا؟. أعذرني، قد أتطفلُ عليك.. ولكننّي لم أستطع صبرًا.

سعيد: اجلس يا أخي، فأنا سأحدّثك عن أسباب سكوتي.. إنه نظام "الزجورتيّة" الظالم..

في الحقيقة، كنت يومًا ما من هؤلاء.. ولكن ذات يوم، بينما كنت أجلس تحت شجرة خرّوب وافرة الظلال، مستمتعًا بالهواء اللطيف...

خليل: على رسلك، وضّح لي أولاً ما هو نظام " الزجورتيّة" هذا! أخبرني أكثر.

سعيد: حسناً.. عندما يكون في قريةٍ ما، أو مدينة ما، رجل من هؤلاء.. لا يستطيع أحد من الشباب منازلته. فهو الأقوى بينهم، وإذا رأى في نفسه قوة أكبر، سافر إلى البلدة المجاورة حتّى يكسر "زجورتيّتها" ويصبح هو، أرجل القريتين.. وهكذا.

خليل: حسنا.. أكمل

سعيد: فبينما أنا سارحٌ في ملكوت الله، جالسًا تحت شجرة خروب، وإذا بفارس يمتطي صهوة جواده ويتقدم نحوي قائلا: مرحبا يا أخي. هل لك أن تُعلِمني عن شخص أبحث عنه، يدعى "الزجورتي سعيد"؟.

سعيد: على الرحب والسعه، ترجّل فأهلا بك، لقد وصلت إلى مبتغاك، ووجدت ضالتك.. أنا سعيد، تفضل ماذا تريد؟

هنا، ترجّل الفارس عن فرسه، وتقدم نحو سعيد.. أمسك بأذنه وقال: اعلم يا سعيد، أنه ما دام هناك نساء تحبل، وتلد، فليس هناك قويّ بين الرجال، وأنّ هناك من الرجال من يفوقك قوّة.. وشدّ أذني، حتى خرجت من رأسي! وركب حصانه ومضى.
هنا- أردف سعيد وأماط كوفيته عن أذنه-وقال:
أنظر يا خليل، أنا الان بلا أذن. أما هذه الحادثة، فقد غيرت نظام حياتي، وغيرت من طبعي الكثير.. وها أنذا أجلس الان، بانتظار دوري، و أرى الناس يعتدون على دوري. أستطيع أن أسترجع حقّي بالقوة أو غير ذلك.. وأنا اخترت غير ذلك!
ذهِل خليل مما سمع.. جلس وكأنّه غائب عن وعيه ،مستذكرًا ما سمعه من سعيد، الّذي كان مسرورًا لأنه أحسّ بأنه يقدّم نفسه مثالا لحسن الخلق والصبر..
وما هي إلا سويعات، حتى أتم الإثنان طحنهما.. وعاد كل منهما إلى بلدته ،منتشيًا بما عاد به من الطّحين والخير الوفير.
سعِدوا جميعاً بثمرة تعبهم.. ولم تسأل زوجته عن تأخره.. هي تعلم بُعد المسافة و معاناة الطّحن.. فقامت من فورها بخبز وجبة خبز جديدة لهم .

حــــنـــــان ..

حتى وهي في المطبخ، لا تتخلى عن أناقتها، تترك مخرجاً من الشال الذي تغطي به رأسها، لتنساب مقدمة شعرها الأسود الناعم، وتغطي بعض وجهها، وكأنّ "غُرتها" المقصوصة بشكل مائل ستارة لنافذتيها السوداوين.

كانت منهمكة بالعمل، تقطع اللحم بسرعة ودقة، وكأنها قصّاب محترف، لا ينافسها في فن الطّبخ و المطبخ من يعرفها، حتّى أنّها لُقبت بـ "الشيف حنان" .

سحب الكرسيّ، ووضعه في الجهة المقابلة لها.. رمقتهُ بنظرةٍ خاطفة وابتسامة، طالما أحسها بَحْرَهُ الذي يأخذه إلى شاطئ يعزله عن صخب الكون وضجيجه من جمال مبسمها..ونظرة أخرى، مع حركة شعرها سحبته بعيدا.. حيث صباحيّة زواجهما

وقد طلب منها أن تُعد إفطارهما الأول، يومها تسمّرت مكانها، حائرةً، مرتبكة، شابكة أصابعها العشرة بقوة وكأن شِجاراً نشب بينها، تعضُّ على شفتها، وهي تشيحُ بعينيها عنه خجلاً.. ثم تقول: ولكن يا أدهم أنا لا أجيد صنع أيّ صنفٍ من أصناف الطعام ولا أعرف كيف أطهو، حتّى أنني أعجز عن.... ما رأيك لو أعددتُ مائدة من "حواضر" البيت؟

قال: أتقصدين اللبن والجبن وما شابه..؟ هذا يومنا الأول، ولا يليق بهذا الصباح إلا إفطارًا مميزًا.

قالت: وددتُ لو أنني أستطيع ذلك و لكن.. أنا لم أتعلم.. حتّى أنني أعجز عن قلي بيضة!

قال: لا عليكِ.. إذن عليّ الآن أن أذهب للسوق لأحضر إفطاراً مناسبا.

استاءت حنان في سرِّها.. لعنت عجزها ولامت نفسها، هي تحبه وكم تتمنى أن تكون قادرة على إسعاده.. كم تودّ ذلك وتتمناه!

حين عاد، استقبلته وهي تصطنع ابتسامة. بادرته بالقول: أعدك حبيبي أن أتعلم كل شيء من أجلك

فقاطعها قائلًا: بل من أجلنا .. وابتسم.. ابتسمت وتابعت قائلة: ستأكل من يديّ ما لذّ وطاب.. أعدكَ أن أتعلم طهو كل أصناف الطعام.

قال: لا عليك الآن.. فالأيام قادمة.

ثم أردف: وعليكِ أن لا تتخلي عن وعدكِ هذا.. وضحكا معًا.

و مرت الأيام، وحنان لا توفر جهدا في تعلم كلّ شيء، لا تترك شاردة ولا واردة إلا وتسأل عنها جارة أو صديقة، وتجرّب..

تنجح مرة وتخفق مرات، وأدهم يلاحظ تغيّر كل شيء من حوله..

حتّى أنها طلبت منه أن يعلّمها كيف تستخدم الحاسوب وكيف تدخل إلى شبكات الإنترنت. لم يتردد يومئذ وعلمها.. وكم أدهشه أنّها خلال وقت قياسيّ كانت تُتقن استخدام الحاسوب، ما جعله يتودد إليها لمساعدته في طباعة أبحاثه وتقارير العمل المتراكمة.

وذات يوم وقف مندهشًا، وهي تخبره أنه لم يبق شيء. "الليلة انتهيت من إنجاز آخر تقاريرك المكدّسة".. لم يصدّق وهو يرى بعينيه ما فعلته، لكنّها لم تتركه يفكر كثيرا وسحبته من يده إلى المطبخ وقد أعدّت مائدة، لم يكن بإمكانه الإحاطة بها وبأصنافها..

دار حول طاولةِ الطعام مراتٍ ومرات وهو يقول: لا بدّأنك استعنتِ بأحد المطاعم الفاخرة ذات الأسعار المرتفعة.. أو أنك...، قاطعته وقالت: لا.

قال: أتقصدين ..؟.

هزّت رأسها وهي تبتسم، قائلة: بل هو من صنع يديّ، وقد أعددتُ كلّ شيء بنفسي.. وهذا هو امتحاني أيّها المعلم.. وأريدك أن تتذوق ما شئت من الأصناف، وها أنذا أنتظر النتيجة.

وقف أدهم منبهرًا أمام تلك اللوحة، التي خطّت بريشة رسّام ماهر.. فكان هناك أربع من الشموع.. ترسل أشعتها الخافتة في أرجاء المكان، من زوايا الطاولة الأربعة.. مع ورودٍ صغيرة.. وُضعت بعناية بجانب كل شمعة.

في الوسط.. كان هناك صحن رُتّب فيه حبات ورق العنب الملفوفة بعناية واحتراف.. و قد تم ترتيبها وبعناية فائقة، لتبدو حبات الدوالي وكأنها خيوط أشعة تتجه منه إلى كليهما.

على يمين ذاك الصحن.. كان هناك صحن آخر يحتوي على ستّة من حبات "الكبّة المقليّة" والتي كانت تحمل لونًا ذهبيًا.. وعلى يساره ثالثٌ.. وُضع به "دجاجة صغيرة محشية".. وحولها ورقتان من الخس.. على يمينه كأس ماء.. وعلى يساره كأسُ عصير، فيه مكعبان من الثلج.

أما في الطرف البعيد.. فقد رُتّب جاط مُشكّلٌ من الفاكهة اللذيذة.. ويقابلهُ في الجهة الأخرى صينية من حلوى "المدلوقة".. التي كان يعشقها.

وما هي إلا لُقيمات من هنا وهناك حتّى قال: يا الله.. أشعر أنني في أفخم مطاعم العالم.. بل وكأنني في حضرةِ طباخة ماهرة، أعدت لي المائدة بنفسها!

قالت: أكمل طعامك أيها الملك.. كم تمنيتُ أن أسعِدك، وأدخِلَ السرور في كل لحظة إلى قلبك..

قال: لم يمضِ وقت طويل، لتتمكني من إحداث هذا الانقلاب في عالمي، أنتِ الآن تفعلين كل شيء، وتتجزينه بدقةٍ وإتقان.. حتّى أنك تعلمت استخدام الحاسوب وقمتِ بطباعة أوراقي المتراكمة بوقت قياسيّ، وأشياء كثيرة..

تغيّر كلّ شيء من حولي.. وهذه حقيقة ولستُ أحلم أو أتخيّل..أنت زوجة رائعة، وقد فعلتِ بوقتٍ قصير ما عجزت عنه النساء في سنين..

وعاد يُكمل طعامه بِنَهم.. وحين انتهى وغسل يديه وفمه، وجد نفسه يقبّلها وهو يقول: أي كلماتٍ تليقُ بشكركِ مولاتي الملكة..!

شعرت أنها فراشة، تحوم حول زهرة تتفتح لأول مرة، ورحيقها لم تلامسه خيوط الشمس.. أيّ سعادة غامرة تعيشها.. وأيّ فرحٍ يحملها ويعلو بها فوق السحب..!

همس دون أن تسمعه: حنان!.. كم كانت سعيدة يومها.. وكم أسعدني فرحها بتفوقها، وكم انتشيتُ وأنا أقول لها مولاتي الملكة.. فتقول: عفوا مولاي الملك.. ما أنا إلا خادمتك المطيعة..

ولكن، ما كان سبب تلك الغصّة العالقة بجوفها!.. ومن أين دخل الحزن وبعثرها.. وبعثر ما في نفسها النقيّة الودودة! ..ربّما.. لأنني وافقت أن أكون الملك وهي الخادمة المطيعة مثلا!؟

لكنّنا كنّا بأجواء المزاح واللعب.. ومن المؤكد أنّني لم أكن السبب.. ربما شيء دفين في سرّها.. كاد أن يخرج من الماضي، لولا أن السّكين الّتي بيدها لمعت.. فانعكس الوميض إلى عينيه.

رأى نفسه يدخل متأفّفًا ويغلق الباب بقدمه بقوة، ليحدث صوتًا مرتفعًا.. ثم أشاع الضجيج في كل أركان البيت.. هكذا.. دون سبب! أو أنه كان يختلق سببًا للشجار..

كان كفه الضخم يأتي من أبعد مسافة.. حاول منعه ولم يقدر.. ليستقر على وجهٍ طالما أحبه!

وهذه الصورة لم تتكرر، كيف قفزت من مكانها، وركضت إليَّ بسرعة الريح حين سقطتُّ وضرب وجهي بالحائط..

قالت حنان: أخ..

انتبهَ مذعورًا.. نظر إلى زوجته حنان تمسكُ باصبعها، وقد نال منه طرف السكين.. أمسكَ اصبعها، كان الجرح صغيرًا، لم ينزف كثيرا،

وضعه في فمه يريدُ إيقاف الدم، ثم حضنها بقوّة وحاول.. لكنّه لم يتمكن هذه المرّة! .. بكى.. بكى كطفلٍ وهي تمسح بكفّها الرقيق على وجهه!..

رفــيـــــف ..

ليلة حالكة عاصفة.. شديدة البرودة.. غزيرة المطر.. تهبّ الريح بقوة وكأنها تريد اقتلاع كل ما تجده بطريقها.. ثم تهدأ قليلا وكأنّها تستعد لجولة أخرى.. تمارس الكرّ والفرّ، بعد أن أعلنت حربها على هذه البلدة الوادِعة.

برق يستكشف أسرار أسوار الحجارة الممتدّة والمنخفضة.. ورعد يدكّها بلا رفقٍ ولا رحمة، غير مكترثٍ بوداعتها وطيب أهلها.

أوشك الحفل على الانتهاء.. وعين رفيف تعلقت بالمكان الذي يجمع العروسين.. وهي تسترجع ما كان لذلك الرجل الخفيّ، ذكريات لم تكن كلمات فتقرأها..

كانت سهامًا تخترق صدرِها بدقةٍ لتصل لقلبها دون استئذان.. ولا حتّى فرصةً تمكنها من الانخفاض أو الابتعاد قبل أن تصيبها فتذبحها دون رحمة.

وكانت تسترجع تعلقها بمواقع التواصل على شبكة الإنترنت.. منشوراتها التي كانت تثير القرّاء وتساؤلاتهم، عمّا أخفته السطور.. ولم تقله الكلمات.

لم تكترث لصراخ أختها التي تكبرها بسبع سنوات.. كانت ترى نفسها جالسة مكان العروس، بينما عريسها

الوهميّ، صاحب أرقّ ابتسامة يجلس بجانبها، وكل ما كان ينقصها هو معرفة اسمه، لتناديه حين يطول حديثه مع من تقدموا إليه ليباركوا له زواجه منها.

أمسكتها أختها من شعرها - وقد جاءتها من الخلف - وصرخت بها: " أنت تعرفين أنّه علينا المغادرة منذ وقت، ولا أدري لم تتجاهلين ندائي! ولا تتذكرين أن والدتي أوصتنا بأن لا نتأخر أبداً، وقد ردّدتُ ذلك عدة مرات، هيا يا رفيف.. علينا المغادرة ".

امتثلت لأوامر أختها ومشت خلفها.. أختها التي كانت تتحدث إلى صديقتها التي جاءت معهما لحضور الحفل، لكنّ الموسيقى التي بدأ عزفها والخاصة برقصة تحبّها جدا جعلتها تتوقف وتنظر إلى الخلف.. إنهما يرقصان الـ " سلو"...

يا إلهي! ما أجملها! لكنّهما لا يتقنانها.. كم أتقنها أنا وحبيبي!.. أنا وهو سنبدو كطائرين في فضاء شاسع، وسنهبط على أرض خضراء مملوءة بزهور حمراء وصفراء وبيضاء.. و فراش من كل الألوان.

شدّتها أختها سهام من جديد.. وكأنها تُخرجُها من حلمٍ عميق قبل أن تغرق فيه!

قالت لها سمر - صاحبة أختها - : " هيا يا رفيف، ما بكِ وكأنك تجلسين أمام الكمبيوتر! أنت تتعلقين بأي شيء يعجبك ،ولا تكترثين للوقت ولا للنداءات التي لا تتوقف أبداً.. ما بك!" ؟

" لا شيء.. لا شيء ".. قالت رفيف وهي تتوجه إلى باب الخروج بخطىً سريعة غير متزنة.

لقد كانت رفيف عصبية المزاج.. حادة الطباع.. سريعة الغضب.. تقطر أنوثة.. لها نظراتٌ تتسببُ بإرباكِ أعنف الرجال وأقسى النساء.. تُطلقها من عينين يعجزُ أمهر رسام عن رسمهما.. كما يعجز الوصف عن وصفهما!.

كانت تُتمتم بكلام غير مفهوم.. نظرت للعروسين للمرة الأخيرة، كانت تودّعهما بعينيها، وأسرعت تحثُّ الخُطا حتى وصلت الباب، ومعها أختها وصاحبتها.

وقفت رفيف في الداخل .. نظرت إلى مرآة أمامها كانت معلّقة على الحائط عند المخرَج.. بدأت تسرح وتتيه فيما خلق الله وأبدع .. فبدأت بتفقد هندامها وهيأتها وكأنها تتبّع خطوات لبرنامج محوسب .

ابتدأت بالنظر بإعجاب إلي تلك (الكعكة) من الشعر التي ترتفع فوق رأسها.. مدت يدها إليها وكأنها تقول لها : "قَرّي يا تاج ملوكيتي"..

مدت يدها الأخرى لتداعب تلك الخصلة من الشعر التي تنساب على عينيها ، لتبعدها برفق وحنان حتى يتسنّى لها أن ترى من تلك اللوحة الجميلة ما أمكنها.. ابتسمت بلطفٍ وغرور لما رأت من جمالها، فأميط اللثام عن لؤلؤةٍ بيضاء ناصعة تحتضنها شفتان حمراوان، ومن شدة احمرارهما.. تحسُّ أن فيهما ناراً تشتعل.

أعجَبها كثيراً ما ترى.. ثم بدأت بنقل أصابعها على هذه اللوحة الجميلة.. وكأنها فراشة تنتقل من زهرة إلى أخرى..

بحركة سريعة ولطيفة نقلت يديها إلى تينكَ التفاحتين على وجنتيها ،فقد كانت تمسح عليهما بلطف شديد خشية أن تخدشهما أو أن تمزِج ما تلونتا به من ألوان وضعت بعناية واحتراف ، حتى بدا على وجهها ذاك اللون الأنثوي الساحر..

عادت تمسح بيديها على جبينها معتقدةً أنها تضيف جمالاً إلى ما تجمّل وتحسّن.. ثم مدت سبابتيها لتمرّ بهما على تلك الخطوط السوداء الرفيعة.. التي ربضت حاميةً وحارسةً لرموش سوداء طويلة، تمتد وكأنها مظلةٌ تحمي تلك العيون، التي حوَت من السحر والجمال ما يعجز عنه الوصف.

وبينما هي على هذا الحال، ابتدأت تعيد ترتيب ذاك الفستان الجميل الذي كان يكنس الأرض من ورائها .. فاجأتها أختها الكبرى بشدها بعنف وصوت عال : "تعالي هيّا!.. شو شايفة حالك!".

وقفن ثلاثتهن ينظرن بدهشة إلى الماء الذي ارتفع.. حتّى غمر الشوارع والأرصفة.. يمنع المسير وقطع الشوارع.. كان المشهد مرعبًا.. فيضانات.. أزيز الرياح.. رعد ترتجف منه القلوب.. و برقٌ يكاد يشقّ الأرض!

رشقات المطر السريعة المتتالية والتي نالت من الواقفين على بوابة الخروج.. أعلنت عن ولادة حورية لتوّها تتحرر من البحر الذي سجنت فيه منذ زمن بعيد..

شعرت بسعادة غمرتها كما الماء الذي جادت به السماء.. لقد كانت أشبه بجمال لؤلؤة نادرة ووحيدة.. يلحظهُ أيّ مارٍّ حتّى لو كان أعمى.. يسرقه جمال رفيف المبهر.

وقفت سيارة سوداء فارهة.. ضوؤها يلامس الماء فينعكس على الأرصفة ووجوه المارّين بسرعة.

انعكاس ضوء الشارع والسيارات.. يجعل من السيارة المارّة، مرآة سحرية.

نزلت سمر ولحقت بها سهام.. وأسرعتا باتجاه السيارة، بينما تسمّرت رفيف في مكانها.

نادتها أختها وطلبت منها أن تسرع بالنزول.. تقدمت رفيف على استحياء.. غير مكترثة بغزارة المطر وما أصابها من بلل.. تقدمت.. ثم تسمّرت من جديد قريبًا من باب السيارة الغريبة.. رفضت أن تصعد إلى السيارة رغم إلحاح أختها وصاحبتها.

فقالت لها سهام: "ستزدادين بللا.. وهذا سيؤثر على فرش السيارة.. هيا اصعدي ! "

قالت رفيف بصوت منخفض: "ما بدّي.."

ردّت سهام – بعصبية – : "ولماذا؟"

قالت: "هذا رجل غريب"

فخاطبها السائق بعد أن فتح نافذته : "هيا أيّتها الفتاة، ارحمي نفسك.. وارحمينا، واركبي بسرعة قبل أن تداهمنا الفيضانات من جديد".

لم يكن بإمكانها أن ترد على رجل غريب حياءً وخجلا.. اغرورقت عيناها بالدموع.. ومنعها حياؤها من أن تتلفظ بكلمة واحدة.. خصوصًا أنها فهمت من أختها أن السائق "إبراهيم" يكون أخا صديقتها سمر.. فما وجدت بديلاً عن الركوب في السيارة.

في الطريق.. تساقطت دموعها.. أشعل إبراهيم ضوء السيارة الداخلي.. وناولها منديلا وقال لها: "جففي دموعك.. لا شيء يستحق البكاء".. نظر إليها من المرآة نظرة ثاقبة تسببت بانحراف السيارة عن الشارع.

تكرّر هذا مرّات قبل أن يصل إلى بيت رفيف، وحين وصلوا، نزلت رفيف مسرعة، وانطلقت راكضة إلى بيتها دون أن تودع من كان برفقتها في السيّارة.

اعتذرت سهام عن طيش أختها، وتصرُّفاتها غير المقبولة، ونزلت من السيّارة بعد أن ودّعتهم.

في اليوم التّالي، قال إبراهيم لأخته سمر: "أليس من الواجب أن نطمئنّ على صاحبتيْك؟ هل تعرفين رقم هاتفهنّ؟".

قالت: "نعم بالتأكيد" ..

طلبت له الرقم، وناولته السّماعة، كانت رفيف الأقرب للهاتف فردّت: "ألو؟"

إبراهيم: أهلًا ، هل حضرتك الآنسة رفيف ؟

رفيف: "من أنت لطفًا؟. ومن تريد؟".

إبراهيم: "ألَستِ الآنسة رفيف؟".

رفيف: "بلى، من أنت لطفا؟".

إبراهيم: "أنا إبراهيم.. أما زلت تبكين ؟ أرجوك ألّا تزعجي نفسك من غلاظتي في الحديث.. فكل ما أريده هو أن أُدخل السرور إلى قلبك".

رفيف: "أنا بخير، اطمئن"، وأغلقت الهاتف.

كانت تجلس أمام حاسوبها، وقد مضى على ذلك وقت طويل ..سبع منشورات ولم يظهر ذلك الاسم المستعار.. ذلك الوهم اللّذيذ.. أين أنت أيها الجميل!.. كادت أن تبكي لولا أنها تماسكت، وقد سمعت جرس الباب يُصدرُ موسيقاه الشّاعريّة.

لم تصدق أنّ مَن يقف بالباب هو إبراهيم ترافقه أخته سمر.. رحبت بهما وقامت بإدخالهما المنزل.. نادت والدتها، ثم عادت تهرول إلى غرفتها!

قال إبراهيم لوالدة رفيف: "رأيتُ رفيف أمس، كنت ذاهبًا لإحضار أختي، فكان من الواجب أن ترافقنا سهام.. وأختها رفيف.. لقد كان الطقس عاصفًا وماطرًا، قمت بإيصالهما، رأيت الآنسة رفيف، ولا أخفي عليك سعادتي بأن أتقدم لخطبتها! ".

قالت والدتها: "أنت تعلم أن نتائج الثانوية العامة قد أُعلِنت منذ أيام، و رفيف تريد أن تكمل دراستها الجامعية، لقد حصلت على معدل بتقدير جيد جدا".

قال إبراهيم: "وانا أرغب في ذلك.. أريدها أن تكمل دراستها الجامعية".

بعد أيام ثلاثة أوقفت رفيف حسابها على الفيسبوك.. حبست دمعة قوية كادت أن تفيض من عينيها.. حين أبدت موافقتها على إبراهيم، الذي بدأت تحس أنها مشدودة إليه.

لم يمر سوى بضعة أيام عليهما.. ثم عُقِد القِران.. ومن ثم الزواج.

كانت دهشة إبراهيم كبيرة.. حين طلب من رفيف تجهيز أوراقها لتقديمها إلى الجامعات.. لكنّها رفضت وقالت "ما بدّي".. كلمتها المعتادة.. والّتي لا يمكن أن تتبدل.

فأخذ إبراهيم أوراقها الثبوتية لترافقه إلى الدولة التي كان يعمل بها، وقد تم ذلك بكل يُسر.

مرت سنوات ورفيف تعيش بسعادة مع إبراهيم.. وقد أنجبت منه ثلاثة أولاد.. وصبيّة تشبه والدتها كثيراً.. لم تشعر للحظة أنها غير سعيدة.. إبراهيم لا يرفض لها طلباً.. ويعاملها وكأنّها ملكة وهو خادمها.. كانوا يعيشون بانسجام مع أولادهم.. لا شيء ينغّص عليهم حياتهم.

كانت محطتهم الأكيدة وسكنهم الجديد مدينة العقبة، بسبب عمل إبراهيم، الذي أجبره على التنقل في دول الجِوار ومدن كثيرة.

والعقبة كانت خِيارًا جميلا.. مدينة سياحية.. بحر وشاطئ.. وأشياء كثيرة!

ورغم كثرة الملهيات.. لم يمنعها ذلك من الدخول إلى "الفيسبوك" ومواقع التواصل الاجتماعي الأخرى.. والعودة إلى هوايتها القديمة في الكتابة..

لها الكثير من المعجبين الذين يشجعونها بأجمل التعليقات.. فشعرت بسعادة مضاعفة تغمر حياتها.

لم يمضِ الكثير لتلاحظ أن هناك نوعًا من الكتابات تعرفها جيدا وتحفظ أسلوب صاحبها في التعبير.. تمرّ من أمامها مرات ومرات.. كانت تقرأ و تراقب.. تريد أن تتأكد أنها على صواب.. وأنّ قلبها يصدُقها كعادته.

كانت المفاجأة.. أنها أصبحت تقرأ المنشورات تحت اسم صريح.. "هاني".

لم يكن الاسم مستعارًا كما في الماضي.. خطر ببالها أن تُرسل له طلب صداقة، لكنّها تردّدت!

وذات صباحٍ أمطرها بـ "إعجاب" مباغِت.. جعلها ترتجف.. لكنّها تماسكت.. تذكرت أنها امرأة متزوجة وأم لأبناء في سنٍ حرِج، ولن يحتملوا منها أي تصرف أهوج.

غابت عن "الفيسبوك" لثلاثة أيام متتالية.. وحين عادت، وجدت طلب صداقة.. كان هو من بادرها.. كان هاني!

وقد وضع صورتها الشخصية، والتي تُظهر حقيقة رجل في العقد الرابع من عمره!.. نال البياض من معظم سواد شعره.. فابتسمت.. لكنّها قالت في نفسها "أنسيتِ

أنكِ في العقد الثالث أيتها المأفونة.. فأي فرقٍ تجدينه مضحكاً! ".

لم تتمكن من إيقاف إصبعها.. وضغطت "قبــول".

وعادت إلى نشاطها السابق.. تكتب فيعلّق.. ويكتب فتعلّق.. وهكذا.. حتى كتب لها رسالة يطمئنُّ فيها عن أحوالها.. ردّت على رسالته.. سألته عن الصورة والاسم.. فقال أنها صورته فعلا.. وأن هذا اسمه.

ذكّرها بالأيام الخوالي.. فما كان منها إلا أن أعلنت عن شوقها له.. وعن الأيام التي قضتها في البحث عنه.

قال لها أنه.. يحبها، وأنه.. لن يتركها.

قالت له إنها.. ستموت إن تركها، لأنها تضمر له من الحب ما لا يُحتمل،

بدأت رفيف تعود إلى عصبيتها.. وبدأت تتساءل في سرها، كيف تنهي حياتها هنا.. وقد بنتها مع إبراهيم لحظة بلحظة.. ويومًا بيوم؟ أيّ أنانية تقترِفُها، إن فعلتْ ذلك وانفصلتْ عنه وتركتُ أبناءها!.. ماذا أفعل؟.. ماذا أفعل؟.. ماذا أفعل؟.. صرخت.. وانهارت!

بكت كثيرًا وكل الحلول تبدو مستحيلة.. وكل الطرق سدّت بوجهها.

لم يكن حال هاني مختلفًا.. رجل متزوج وله أسرة وأبناء.. لكن، ماذا يفعل أمام حبٍ لا يتركه لحظة، إلا و دقّ أبواب ذاكرته وتفكيره؟

ذات يوم اتصل بها ،لم تكن المكالمة طويلة.. بل كانت مقتَضبة وسريعة.. أصدرت من خلالها رفيف أوامرها

إلى هاني.. و هاني لم يجد طريقة أو منفذاً للهرب.. بل كان يرغب في ذلك!

هي: هاني، اسمعني جيداً.. أريد أن أراك، وعليك أن توافق وأن ترتب لذلك.. هي خطوة مجنونة لكن، لا بدّ منها، وربما تطفئ نارنا التي تأكلنا كل لحظة.

هو: حاضر.. سأعمل على ذلك قريبًا.

بعد عدة أيام كانت تقلّب صفحاتها على شبكة الإنترنت.. حملت هاتفها واتصلت به.

ظهر رقمها دون اسم .. فقد كان يحفظه برأسه.

هاني: ما الذي دفع حبيبتي للاتصال!

رفيف: لا أعرف.. لكنّني اشتقت لك وأردت سماع صوتك.

هاني: مفاااجأة..

رفيف: ما هي؟ أرجوك قل لي ما هي!

هاني: ساعة و أكون في العقبة، والصحيح أنني جئت بعمل.

رفيف: إذن، لو لم أتصل، لما أخبرتني!

هاني: بل رتبت كل الظروف لرؤيتك، وأحببت أن أفاجئك .

رفيف: هاني.. هل ما تقوله صحيح؟

هاني: نعم صحيح.. ساعة واحدة وأكون في العقبة.. أنهي عملي وأتفرغ لك.

رفيف: بل سأراكَ قبل أن تفعل أيّ شيء.

هاني: ..يا حبي..!

قاطعته رفيف قائلة: "سأراك قبل أن تفعل أيّ شيء".

هاني : حاضر حبيبتي.. سأتصل بك عند وصولي.

بدأت العصبية تظهر على تصرفات رفيف.. فالانتظار أحد نقاط ضعفها.. بل و أقواها.

مرت نصف ساعة وهي تفكر باللقاء .. وكيف سيكون.

توجهت إلى مرآتها.. وأخذت تجرب ألوانها الكثيرة، وما يناسب هذا اللقاء وهي تسترجع ما كان يقوله عن الألوان وما تفعله النساء.

جرّبت كل ما تملك من فساتين وألبسة مختلفة..

انتبهت إلى الساعة.. لقد مضت الساعة و زادت خمس دقائق..

أمسكت بهاتفها وأخذت تنتظر.. مرت ساعة وعشرة دقائق ولم يتصل!.. ربما الطريق مزدحمة..

ساعة وربع الساعة!.. يبدو أنه أخطأ في تقدير المسافة.. هاني سيأتي بالتأكيد..

ساعة ونصف!.. هاني أرجوك لا تفعلها.. لا تكذب على امرأة أحبتك دون أن تراك.. أرجوك اتصل بي.. أنا بانتظارك.

اتصلت به.. ثلاث مرات..

ولم يجب!

لم فعلتَ هذا يا هاني.. لم كذبت عليّ!...

سأتصلُ للمرة الأخيرة.... وأخيرًا جاءها الرد

- الو؟

- مرحبا، أنت لست هاني. أين هاني؟

- عفواً، أنا لست صاحب هذا الهاتف.. ولم يظهر اسمك على الشاشة.. فقط ظهر الرقم.

- نعم نعم.. لا بأس.. أين هاني؟

- لا أعرف من هو هاني.. لكن على ما يبدو أنه صاحب هذا الهاتف.

- أرجوك.. أين هو؟ ولم الهاتف معك؟ هل حصل له مكروه ؟

- الهاتف معي لأنّني أبحث فيه عن أسماء معروفة. أنا أحد رجال الدفاعِ المدني، ويؤسفني أن أقول لكِ أن الرجل عمل حادثًا، و لقي فيه حتفه..، هل بإمكانك أن......

انقطع الاتصال.. غاب صوتها.. وبدأ يسمع......

طوط طوط طوط .

سائــق الشّاحــنــة ..

في ليلة من ليالي كانون الباردة.. تمطر السماء وتعصف الرياح وتشتدّ البرودة، و خبراء الرصد الجوي يحذّرون من ارتفاع مستوى منسوب الثلج في اليوم التالي، وأنّ مكوثه سيطول.

هو،لم يغب عن تفكيره تلك الفتاة التي رآها ذات يوم على شُرفة منزلها، كأنّها القمر يبزغ من عنان السماء. ليبثّ خيوط أشعته بسكينة و هدوء على أهل الأرض.

تبدأ الحكاية مذ نظر إليها وهو يقود شاحنته ببطء.. لتسرقَ منه كيانه كلّه!

صار في كل سفرة يمرّ من أمام منزلها، لعله يحظى بنظرةٍ إليها تُعيده إلى وعيه وعقله.. وكان يمضي معظم أوقات إجازته جيئةً وذهاباً من أمام منزلها.

لكن، هذه المرة لم تظهر.. إنه آخر يوم في إجازته.. ولم تظهر..

جنّ جنونه! في العادة تنتظر مروره بفارغ الصبر.. ما الذي حدث؟

غاب أياما ثلاثة.. ثم عاد ليَرقبها، لكنها ما زالت مختفية.. لا تنتظره!

رأى طفلا يخرج من بيتها.. استدعاه بلهفة واستدرجه في الحديث قائلا: لمن هذا المنزل؟

قال الولد: لأبي غازي

سأل دون أن يعي ما يقول: وهل لدى أبو غازي أي بنات؟.

الولد: نعم، لديه بنت وحيده.. هي أختي هيفاء

هو: اسمها هيفاء! وهل هي مسافرة؟

الولد - ببراءة - : بل هي في المستشفى الواقع في آخر الشارع

هو: ولم؟ هل هي مريضه؟ هل ستجري عمليه؟

لم يستطع ترتيب أسئلته ولا عددها، فقد وقع بإرباك شديد.

الولد: لا، لا.. هي فقط مريضة. لكن الطبيب لم يعرف حتى الآن سبب مرضها

هو: حسنا. شكرا يا حبيبي

توجه إلى السوق مسرعًا، واشترى أجمل باقة وردٍ من الجوري الأبيض والأحمر.. باقة ورد نُسّقت بعناية! فهي لمن أحب وعشق.. ولمن سرقت النوم من عينيه والراحة من بدنه.

انتظر انتهاء ساعات الزيارة بفارغ الصبر، وما أن حاول الدخول، حتى أخرجه الممرض بسبب انتهاء وقت الزيارة

رجاه يونس بدقائق قليلة.. وبعد عدة محاولات سمح له بعشرِ دقائق فقط، ذهب مسرعًا إلى الممرضة يسألها عن هيفاء، فأشارت إلى غرفتها، ولحرصه، سألها من يرافقها؟ فأجابت بـ "لا أحد".. فهي تستطيع خدمة نفسها بنفسها.

سار باتجاه غرفتها يتساءل " هل تستقبلني؟ أنا لم أكلمها! "

وصل الغرفة، وإذا بالباب مفتوح. دقّ الباب ودخل ليراها ملقاة على سريرها، نائمة على جنبها وتنظر للأرض. فهي لا يهمّها من حضر ولا تريد رؤية أيّ شخص.

هو: مرحبا

لم ترد، ولم ترفع بصرها.

أعاد ذلك مرة أخرى: مرحبا يا هيفاء

أدارت وجهها ببطء شديد.. إنه هو.. هو يونس حبيبها

نهضت مسرعة تلملم شعرها المبعثر وتحاول رسم ابتسامة لطيفة على شفتيها.. تنبّهت أنها تتصرف كطفلة صغيرة..

استعادت توازنها وقالت بصوت خافت خجول: أهلاً بك، تفضل بالجلوس.

قدم لها باقة الورودِ، مُبديًا مودته، ومُقرِنا بها ابتسامة عريضة قائلا: لا بأس عليك.

قالت: شكراً لك. ولكن ما الذي أتى بك! أعني من أعلمك بوجودي هنا؟

قال: لم أركِ منذ إجازتي السابقة .. أعرف أنّ سفرتي الأخيرة طالت.. لكنني عدت.. مكثتُ أمام منزلكم لساعات لعلّي أراك ولكن دون جدوى. وفي لحظة، خرج من بيتكم ولد صغير، فاستدرجته بالحديث حتى أعلمني بوجودك هنا.. وهأنذا آتي على عجلةٍ لأراكِ وأطمئن عليك.

قالت: أنا لستُ مريضة ولا أعاني من الآم جسديّة.. آلامي هي آلامُ فِراق.. فراقك أنت.. أنت الذي سرق مني روحي وعقلي، وحياتي وقلَبَ كياني، أصبحت ابتسامتك الّتي كنت أراها الداء.. وهي الدواء!

قال: إن كان اللقاء هو الدواء.. فسألقاكِ يوم تخرجين من هنا

قالت: أود الخروج اليوم والآن. قبل سفرك

قال: لن أسافر هذه الأيام، لأنّ هناك عاصفة ثلجيّة.. عندما تخرجين سأقابل والدك وأطلب القرب منه..

ثمّ غادر.

فرحت هيفاء فرحًا شديدًا.. وبدت كأنها لا تعاني مرضًا، فهي الان بصحة جيدة.. والآن فقط تعيش يومها الأول من حياتها

استأذنها بالانصراف تاركا قلبه معها، وسارقا قلبها من جديد.. لكنّه أخفاه مكان قلبه المسروق.

نشمـيّة من الكــرك ..

صباح ثقيل من صباحات كانون الثاني من عام ١٩٨١م.. كنتُ مثقلاً بالتفكير بمقابلة العمل الذي لا أعرف عنه الكثير من المعلومات.

مشيتُ مشتت الانتباه في أحد شوارع الشميساني، بين روعة المباني ودغدغة شمس الصباح.. بين حركة السّير الخانقة و دورة الحياة الصباحيّة.

وصلتُ لمكتب الشركة.. وقفتُ على الباب لا أجرؤُ على قرع الجرس.. دقّقت مرات ومرات باسم الشركة المكتوب على يمين الباب، لعلّ العنوان صحيح!

بعد لحظات استجمعتُ شيئا من شجاعتي وقرعتُ الجرس، فإذا بصوتٍ أجشّ يقول: "تفضّل".

دخلتُ.. وما هي إلا دقائق معدودة حتى انتهيتُ من المقابلة.. و زال الهمّ!

عرفتُ أنّ العمل سيكون في جنوب الأردن.. في الكرك. وأنّ الشركة أجنبية، والراتب يعادل ثلاثة أضعاف راتبي الحالي.. وللعمل عدة امتيازات.. منها سكن وسيارة.

هكذا عرض.. لا يمكن لأحدٍ رفضه!، لذلك لم أتردّد في القبول.

طلِب منّي المباشرة في العمل - لحاجة الشركة - في مشروع إنارة لما يقارب نصف المحافظة التي أحببتها قبل رؤيتها.. أحببتها من تاريخها و رجالها الذين رفعوا من شأنها بكرمهم وجودهم.

باشرتُ التحضير للسّفر.. ثلاثة أيام وبعدها سأسافر بعيدًا عن بلدتي.. أهلي وأصدقائي وسأكون في بلدٍ جديد.. كلّ ذلك، زاد من توتري وترددي.

جهزتُ حقيبة سفري وشددت الرحال إلى العاصمة عمان بالتحديد.

هناك، سألتُ عن مجمع الجنوب.. كان مجمعًا صغير متواضع، فيه عدد قليل جدّاً من السيارات و بضع باصات كبيرة ذات حركة بطيئة مملة.

ركبتُ سيارة.. وجلست بجانب السائق لأرى - تفاصيل الطريق - وبعد ساعة تحرّكت الـ "١٩٠" الجميلة .. تمشي الهوينا.

كان الطّريق صحراوي، مليء بالحفر، وصيانته تكاد تنعدم، وشمسه حارقة، رغم أنّنا في فصل الشّتاء.. كلّ ذلك زاد من صعوبة السفر وزاد من توتّري.

على طول طريق السفر.. كنت كلما رأيت بلدة صغيرة أو قرية ظننت أنّها الكرك، إلّا أنّ إشارات الإرشاد كانت تكذّب ظنّي.. حتّى انعطفنا عن الطريق الصحراوي باتجاه الكرك التّي أصبحت تبعد ٤٠ كيلومتر.

تغيّر إحساسي، وبدأت نبضات قلبي تزداد نتيجة التوتر..

أريدُ أن تمشي السيارة بسرعةٍ أكبر، لأصل وأرى الكرك..

ولصعوبة ذلك.. كنت أسرح في خيالي.. حتى رأيتُ يافطة مكتوب عليها "الكرك".

بدأت بالتفكير.. أين سأنزل؟ أين سأذهب؟ هل سأتوه عن العنوان؟ لعلّي أسأل بعض المارة!

لكن بكلّ الأحوال لا بدّأن أعتمد على نفسي.. فطلبتُ من السائق أن ينزلني في وسط البلد.

نزلتُ هناك - حاملا حقيبتي، التي كانت عنوان غربتي - حيث دوّار صغير متواضع، يجلس على حافته أربعة رجال كبار في السن.

نزل من السيارة أيضًا فتاة من الأغوار الجنوبية، تعمل في عمان، وكانت في زيارة لأهلها بغور الصافي.

سألتني "إلى أين تذهب يا أخي؟"

فقلت على استحياء " جئت للعمل في منطقة المرج "

قالت: لقد أصبحت خلفنا.

قلت - وقد تبسمت تبسم الذي يجيد التمثيل- : أعرف، لكنّني أحببت أن أنزل هنا في وسط البلد، شكرًا لك.

بحثتُ عن تاكسي.. وأعطيته العنوان المقصود، فأوصلني إلى فيلا تقع على رأس الجبل في منطقة هادئة، تكاد الحياة تنعدم فيها.. لكنّها ساحرة.

قرعتُ الجرس، فإذا برجل أجنبي.. أحمر الشعر يطلّ علي، وقال بالإنجليزية " تفضّل".

دخلتُ، فوجدت امرأة عجوز تجلس إلى طاولة..

تعارفنا، فعرفت أنه المدير وتلك كانت زوجته.

جلستُ والمدير، نتكلم عن تفاصيل العمل والمهام المسندة إلي، وأعطاني عنوان الفيلا التي سأسكن بها، وعنوان العمل، ثم انصرفتُ على أمل اللقاء في صباح اليوم التّالي لمباشرة العمل.

بدايةً، كان لا بُدّأن أبدأ بمسح ودراسة أطراف القرية، حتّى أدرك خفاياها ومشاكلها، قبل الولوج إلى مركز القرية.

وذات يوم، ذهبت لقرية جبلية، ذات طبيعة صعبة.. تمتد على طول جبال عالية.. تشرف على البحر الميت، وتطل على فلسطين.. تسمّى" الطيبة الجنوبية".

لفت نظري بيت يقع في منطقة عالية، الوصول إليه صعب.. فقررت أن أتمّ عمل اليوم وأتركه للغد.

لا أدري ما الذي انتابني عند عودتي للمنزل!

فقررت على أثره تأخير العمل في تلك القرية حتّى تتحسن نفسيتي و أرتاح من ذلك التعب الذي ألمّ بي فجأة.

في اليوم التالي، ذهبت إلى مناطق الشمال من المحافظة التّي تقع على مشارف وادي الموجب.. الوادي السحيق الذي إن وقفتَ على مشارفه، تصاب بدوار ورعب من هول المنظر.

كان الطريق ضيقًا، ملتوٍ و شديد الانحدار، والجبال وَعِرة مخيفة.

لكنّ ما حوله من قرى أثبتت لي قدرة أهلها على التعايش مع تلك الطبيعة.. وذلك بحسن الخلق والعشرة.

فانشرحت أساريري وبدأت العمل هناك بهمّة ونشاط.

وفي أول جمعة لي هناك، وبعد تناول الإفطار، قرّرت أن أذهب لاستطلاع مدينة الكرك..

مدينة تاريخية، رابضة على رأس جبل شاهق..

فزرت قلعتها التي لم أملّ من زيارتها في كلّ جمعة لاستطلع خفاياها المتجددة.

ولعظَم مساحتها، وتصميمها الذي يتخذ شكل الطبقات ..أخذت مني أيامًا وأيام..

وتعدّى شغفي بها لاستكشاف الكرك كاملة وحدود القلعة.. تعدّاها لشارع السوق الذي يسوده جو الألفة، فترى الناس بطيبتهم وحسن معاملتهم.. فلا تملّ من البساطة والترحاب من أهله.

وتعدّاها لمؤتة.. والمزار.. ومقامات الصحابة.. وشهداء معركة مؤتة.

أمّا بالنسبة للطبيعة فيها، فهي أشبه بطبيعة فلسطين الحبيبة.. ليس فقط الطبيعة، فالأهل والبلاد متشابهون إلى حدّ كبير.

انتهت الإجازة، وعدت للطيبة..

في الحقيقة، هي اسم على مسمى، بمجرد دخولك لها، لن تنساها.. فكيف لو عاشرت أهلها!؟

باشرتُ العمل في نفس الموقع الذي بدأت به..

وبعد سويعات.. ظهر من ذلك المنزل امرأة في مقتبل العمر، سارت باتّجاهي..

فأشحتُ بوجهي عنها.. ألقت السلام وقالت "اليوم بعد الظهيرة غداكم عندنا"

لم تسألني عن عملي! ولم أعرف ماذا أرُدْ.. هل أقبل أم أرفض!؟ لقد كنت خجولا بطبعي.

وقفت تنتظر مني إجابة.. فبادرت قائلة :" لا تنسَ يا أخي".

نظرتُ إليها باستغراب.. فرأيت امرأة يشعّ النّور من وجهها، والطّيبة والجمال السّمة الظاهرة على محيّاها..

وقلت: "شكرا لك يا أختي، ولكنّني لا أستطيع تناول الغداء عندكم"

هي: ولم؟

أنا: "أولا، أنا لا أرى هناك رجالاً، وأنت تسكنين في بيت "مُطرِف"، فلكِ الشّكر وجزاك الله خيرًا".

هي: عفوًا يا أخي، سيكون هناك من ينتظركم.. فلا تقلق.

وُضِعتُ في موقف لا أحسد عليه، سرحتُ أفكّر.. وبدأتُ أحسب عواقب ما أنا فيه..

فمن يدعوني للطعام.. امرأة شابة، ولا رجال هناك والبيت بعيد عن منازل القرية نوعًا ما.

أخرجتني من شرودي.. وقالت :"لن أقبل منكم أي عذر، فالمعازيب بانتظاركم"

غادرت ولم تنتظر مني رد

تركتني في ذهول.. فلم يخطر ببالي حينها كرمُ هذه السيدة، ولا العادات الطيبة في هؤلاء الناس.

فكرت.. "ماذا عساي أن أفعل؟ ولم أنا في هذا الموقف السخيف؟ لقد اعتدتُ أن أرفض الدعوات من أهل المحافظة أثناء عملي لكثرة دعواتهم لي!" ولكنّ هذه المرّة.. تختلف!

بعد حوالي ساعة، شاهدتُ رجلا كهلاً ذو لحية بيضاء.. له نور في وجهه.. وكأنه ممتد من السماء إلى وجهه المنير..

كان يركب فرسًا بيضاء جميلة.. يركبها كأنه فارس مغوار..

فأشار لي بيده ملوحًا "السلام عليكم، أنا بانتظاركم يا شباب، حيّاكم الله".

لم ينتظر هو أيضا مني رد.. بل استمر في طريقه إلى ذلك المنزل المرتفع.. وأنا أنظر إليه بإعجاب.. بالفعل كان ذو هيبة على فرسه!

انشرحت أساريري مرة أخرى وارتاحت نفسي لرؤية هذا الرجل.. وعدتُ لإكمال عملي بكلّ أريحيّة ،وهمّة ونشاط.

وبعد مرور ساعتين.. طلّ علينا ذاك الشيخ من أمام بيته ملوحًا بيده ومناديًا " حياكم الله، تفضلوا".

قلت لمساعدي أنّه يجب علينا القبول، فتوجهنا إلى المنزل.

استقبلنا الشيخ، وأدخلنا إلى غرفة ذات فراش متواضع.. لا يتعدى الأربع فرشات، مع متكآت تتوزع على ثلاث جهات.

وفي الوسط مفرش بلاستيكيّ، وُضِعَ عليه المنسف وحوله الشراب والماء.

جلسنا في صدر الغرفة، وقال لنا الشيخ :"تفضلوا على ما قسم الله"..

لم يبادر بالسؤال عنّا أو عن طبيعة عملنا، بل بادرنا بالكرم والجود.

سمينا(بسم الله الرحمن الرحيم)، ولم نكن قد تناولنا شيئا قط.. وإذا برجل يرتدي بزّة عسكرية يدخل علينا، جلس مرحبا بنا، وطلب منا البدء بتناول الطعام.

أنهينا طعامنا واستأذنت للعودة للعمل.. وكان لا بدّلي من أن أعرف أنّ ذلك الرجل الكهل هو أبوها، والرجل ذو البزّة العسكرية، لم يكن إلاّ النّشمي، راعي المنزل وزوج النّشمية.

رزان ..

لو تعلمين بنيّتي أيّ وجع أخفي تحت خطوط تركتها الأيام على وجهي، وأي صراخ يودّ أن يركض لولا قضبان الصمت التي حبسته، أي صهيل في روحي كلّما مرّ صوتك من سمعي الذي لا ينتبه الآن إلا لك، أيّ خوف.. وأي رعشة تتملكني الآن وأنا أنصت لذاكرتي، وهي تهيل عليّ صورك الضّاحكة.. وأنت تقفزين عن حبل صغير.. " شبرة أمرة شمس نجوم .. شبرة أمرة شمس نجوم.."

صراخها كان يحمل رائحة الألم وينخر مشاعره، وكوخز الإبر يمرُّ من جلده حتّى آخر قرار في قلبه، يُفني الخطى في ممر مستطيل، ينظر إلى شاشة التلفاز المعلقة، لا يرى صورا ولا يسمعُ صوتاً، وكأنّه غارقٌ في بحرٍ منْ سكونٍ أو عدم .. وكأنّه صار خارج هذا الكون، وما يسكنه إلاّ من صراخها الذي صار يسمعه استجداء .. وكأنها تقول أبي .. أبي .. ينظر إلى زوجته يستجديها بنظراته، لكنّها كانت تطأطئ رأسها، تجمع كلّ صبرها، وتذرف ما خبأه الخوف والرجاء من دمع وألم.

هي تعرف آلام المخاض جيدا.. لكنها لا تملك إلا الدعاء، والرجاء والصبر، وبعض النظرات التي ترسلها إلى زوجها الذي وقف مذهولا وعاجزا تماما، فلا يدري ما يصنع أو كيف يتصرّف!

أيّ مخاض هذا الذي يضرب الأبواب مبكرا.. ولماذا يأتي على وجه السرعة ولا ينتظر إلى موعده.. أي مخاض يأتي في

(الشهر الخامس من الحمل) .؟!

الطبيبة لم تكن مريحة الملامح، كي تتجرّأ والدة رزان على سؤالها، لكن ذلك لم يمنع والدها من اللحاق بها وسؤالها عن وضع ابنته .

قالت الطبيبة : رزان .. رزان بحالة جيدة، والجنين أيضا، لكنّه فقد الكثير من السائل الذي يحيط به، وفي هكذا حالة نحن أمام ثلاث احتمالات. الأول: أن يستمر تناقص السائل فيبقى حالها على ما هي عليه، لكنّ الجنين سيعيش معاقا. والثاني أن ننجح بإضافة السائل للجنين فيعيش بشكل طبيعي، لكنّ الثالث والأرجح: أن يموت الجنين. (وكله بيد الله سبحانه) .

قال والدها : إذن الجنين هو ما يشكل الخطر الآن على حياة ابنتي .. فلماذا لا يتم إجهاضه .؟!

قالت الطبيبة: الإجهاض بكلّ الأحوال ممنوع.. عليك أن تسلم بالأمر ولما يقدّرُهُ الله.

عاد الصوت يتهادى إلى سمعه والصور تركض في رأسه ((شبرة أمرة شمس نجوم))..ابتسم وكفّيه تعصران وجهه .. ورزان ترقص وتتمايل في يوم زفافها وكأنّها طائر يتعرف لتوه على جناحيه .. العيون تتبع أي حركة تصدر عنها .. عادت ظلال ذلك اليوم لتخيّم على ذاكرته، وبصره مسلّط باتجاه طائرة تتضاءل في الأفق البعيد.. كانت تحملها إلى دولة أخرى .. حتّى أن نبض القلب عاد ليجدّف من جديد، وهي تمرر من ضحكاتها عبر سلك الهاتف من دولة تقع في آسيا البعيدة، حيث تقضي أيام (شهر العسل) .

انتصف الليل .. والجميع في المشفى يؤكد على ضرورة مغادرة والديها .. لا ضرورة لبقائكم والحال على حاله .. وقد نحتاج وجودكم في وقت مبكر غداً ..! والصراخ يتحول إلى طنين واختناق كلّما ابتعدت المسافة .. ينظر إلى زوجته التي ما كفكفت دمعها ولا لملمت تبعثرها وخوفها الذي لازمها، حتّى احمرّت عيناها وأصبحت بلون الجمر من شدة البكاء، لكنّه لا حول له ولا قوة .

جلس على حجر كان يسكن بهدوء بجانب بوابة البيت، كان يضعه ليجلس عليه متأملاً، سارحاً بملكوت الله.. قال لزوجته: سأجلس هنا قليلا وأتبعك، كانت تعرف زوجته أنه يريد لملمة نفسه .. وهو بكل الأحوال لن يقدر على النوم، فتركته يمارس طقوسه ويهيم مع خيالاته.

عاد إلى جمع رأسه بين كفّيه .. وبدأت الأصوات تتسل إليه .. الصور والأصوات كلّها .. صوت الطبيب .. صوت الطبيبة .. أصوات الممرضين والممرضات.. صراخ (رزان) وصمت طفل بحجم كف اليد محمولا على كفيه .. ملفوفاً بقطعة بلاستيكيّة وملفوف عليها الشرائط اللاصقة. بكاء مرير يتسرب مع برودة الطقس فينكمش .. صوت أنفاسه .. صوت زوج ابنته الذي كان يصل عبر الهاتف من بلاده البعيدة.. حزن وأسف .. وجمل كانت في وقتها مفيدة (المهم البنت، الجنين يعوضه الله) حفرة صغيرة وتراب ناعم يتناثر .. وليل طويل كأنه لن ينتهي.

كان والدها يغطّ في نوبة شرود عميقة حملته بعيدا والأصوات ما زالت تنسكب في رأسه فتأتي رائحتها صورًا مزدحمة وكثيرة (شبره أمرة شمس نجوم .. يسعد هالوجه المهضوم .. أحلى طله، وأحلى ضحكة، وأحلى غمزة، وأحلى هدوم)، ثم طائرا يكاد يهوي، ويعاود الطيران من جديد .. أبي .. رزان .. رررامي

لَكَزَتْهُ زوجته، وقالت: قم يا رجل .. نظر في وجهها، طالع ابتسامتها العريضة وقال: ما هناك؟.

قالت: رزان أنجبت وهي بخير .. وكذلك الجنين بخير، قم وسلم عليها يا زوجي الحبيب فقد عوّضها الله خيراً.

المحتوى

الموضوع	الصفحة
إهداء	٥
تقديم - يوسف أبو ريدة	٧
قراءة نقدية - عبدالرحيم جداية	١١
قراءة - محمد فتحي المقداد	١٥
الوصيّة	١٧
الصّرير	٢٧
الحلم	٣٣
الحدس	٣٧
اللقيط	٤٣
ذو الأذن المقطوعة	٤٩
حنان	٥٣
رفيف	٥٩
سائق الشاحنة	٧٣
نشمية من الكرك	٧٧
رزان	٨٥